فكرية شحرة

رواية

الثَّجّة

الثَّجة

الطبعة الثانية

اسم الرواية : الثَّجّة

التصنيف : رواية

تأليف : فكرية شحرة

رقم الإيداع: ١٣٣٨٢ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: 978-977-86136-8-1

الشواهين للنشر والتوزيع

العنوان: ٤٥٣ شارع الهرم - الجيزة - جمهورية مصر العربية

ashawahin7@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

فكرية شحرة

الثَجّة

رواية

إلى منبت القلب ومرتع الروح..
مدينتي التي حَملتُ ملامحها وحملتني أرضها؛ مدينة الثجة..
إلى "بعدان" اللؤلؤ المنثور في وجداني..

-1-

إنه ذات العمر الذي قرر والد مختار أن يزوجه فيه؛ وكان مختار يتهرب كفتاة تدَّعي الحياء؛ يتذكر أنه لم يكن حياء بل هروبا من حكم مؤبد لبقية حياته.

تطلع مختار إلى عينيّ ولده اللتين تشبهان عينيه، وبريق الفتوة يسطع فيهما متقدا بثقة وأنفة؛ صمت متعجبا من تلك الجرأة في طلب الزواج وهو لم يتعد الثامنة عشرة.. وأطال الصمت. ألح عمر قائلا:

- قلت لي أنك تزوجت في الثامنة عشرة يا أبي؛ لقد حان وقت زواجي أنا أيضا.

وغمز بعينه بإشارة ذات مغزى أنه مستعد لمتطلبات الزواج؛ كان لهيئة عمر التي تسبق سنه أثرها؛ فطوله الفارع الذي ناهز طول أبيه وكتفاه العريضان وجسده المشدود وخطوته الواثقة تجلت في هذه الثقة البادية في تصرفاته وأقواله.

رفع مختار كفه وصفع مؤخرة رأس ولده وهو يجذبه بمودة قائلا:

- لا تتعجل نهاية حياتك قبل أن تبدأها يا غبي؛ الحياة ليست كلها علاقة فراش.

عمر الذي أنهى الثانوية لهذا العام، يبدو كمن فعل كل ما ينبغي عليه؛ والده فقط يتمنى أن يسافر للدراسة خارج اليمن؛

السفر والاختلاط بشعوب مختلفة فرصة لكي تكبر اهتماماته التي جاءت على قياس اهتمامات والدته؛ لكن قرار جده الحاج قائد أن يكمل دراسته الجامعية في مدينته حال بين أمنيات مختار وبين تحقيقها.

– حسنا يا أبي؛ خطبة فقط؛ أخشى أن تفلت مني فاتن تماما.

أطلق مختار زفرة ضجر وهو يحدث نفسه:

"أنت لا تدري ماذا يعني أن يفلت منك العمر بأكمله"

وعاد يطمن ولده قائلا:

– أنتما شبه مخطوبين؛ العائلتان بينهما اتفاق ضمني منذ طفولتكما؛ فلا تقلق واهتم بمستقبلك الذي هو مستقبلكما.

– كان هذا الاتفاق الضمني في الطفولة كما قلت يا أبي بين جدي وجدها؛ الآن تغيرت الأمور كثيرا؛ لم يعد عمي طاهر الرضي ذلك الرجل الذي نعرف.

أتي صوت "غالية" من خلفهما ناهرة ابن أخيها بامتعاض:

–العالم المتحضر يحارب الزواج المبكر وأنت يا عمر تريد أن تكون أحد ضحاياه.

ضحك عمر ساخرًا:

–هل الرجل ضحية في الزواج المبكر ؟ لا أظن ذلك.

رد مختار وهو يرفع حاجبيه بتوجس:

– نعم يكون ضحية الزواج المبكر، وربما يرغم على ذلك أيضا.

ضحك عمر في وجه أبيه رافعا صوته:

– هل تلمح لشيء يا أبي ؟

كان يوما يشبه هذا اليوم، حين دعاه والده "قائد الإبي" كأنما يكافئه على نجاحه بتخرجه في معهد المعلمين بشهادة دبلوم ليصبح معلم مدرسة؛ فقد أثار فخره الكبير في القرية وحيث يقطنون في مدينة إب؛ ظل يخبر كل من مرّ على دكانه أن ولده أصبح معلما وأنه سيدرس أولادهم في المدرسة القريبة جنبا إلى جنب مع المدرسين المصريين والسودانيين.

– سنخطبها لك من القرية؛ بنات المدينة لا يصلحن للزواج.

قرار الأب دبر بليل؛ أمه بحاجة إلى أيدٍ عاملة داخل البيت؛ وبنات القرية فتيات سخرة تربين على العمل في البيت والوادي كما يقال؛ لكنه لا يرغب في امرأة تصبح علاقتها بزوجها جزءًا من عملها المكلفة به والتي تربت على تحمله والقيام به.

يريد امرأة متعلمة؛ تعرف أمورا غير خدمة البيت والقيام بواجبها الزوجي.

– لماذا لا نخطب بنت "العم رقيب" مثلا ؟ اقترح مختار على حياء.

–كبيرة عليك وبناتهم مدللات. تساءل مختار بدهشة: كيف يا أبي كبيرة وهي في مثل عمري وتخرجنا سويا في معهد المعلمين ؟

– يا ولدي المرأة ينبغي أن تكون أصغر من زوجها بسنوات؛ البنت تنتكس؛ الإنجاب يأخذ من جمال المرأة. ثم ما الذي تريده ؟ متعلمة تحط رأسها برأسك ؟!!

حدث مختار نفسه: ماذا تتوقع أن يزوجوك فتاة متعلمة من بنات المدن لا علاقة لها بالعمل في بيت موصول بعشرات الضيوف كل يوم ؟!!

امرأة لا تنجب سبعة إلى تسعة أبناء وأكثر ؟!! ما زال والده غاضبا حتى الآن؛ لماذا اقتصر إنجابه على ولدين فقط عمر وبهاء فهو لا يعد البنات الثلاث شيئًا يذكر.

كان والده متطلعا لمجيء بهاء الذي أتى بعد توقف طويل عن الإنجاب؛ أتى كالحلم لجده قائد؛ بعد أن انفصل جميل وفاضل بعائلتيهما في بيوت مستقلة وحرم الحاج وجود صغارهم في البيت الكبير.

والده "قائد الإبي" رزق ثلاثة أبناء؛ مختار وأخويه جميل وفاضل فقط؛ كان يتمنى عشرة من الأبناء الذكور؛ فهو كعادته لا يذكر غالية وأختيها وإن كانت مقبرة القرية قد أخذت نصيبها من المواليد.

يقول دائما إن الذرية الكثيرة عزوة وفخر؛ وترد أم مختار عليه:

- إذا أصلحهم الباري وإلا فواحد خير كثير.

منذ وعى مختار نفسه، وأقرباؤهم وأقرباء أقربائهم يحلون ضيوفا على مدار الشهر؛ يأتون للعلاج في المدينة أو الاستعداد للزفاف؛ أو في الأعياد للتكسي وشراء المستلزمات؛ يأتون بأطفالهم وأكياس ثيابهم ويتركون فقط مواشيهم في القرية.

والده الحاج قائد الإبي" يردد في أذنه كلما وجده يتذمر حين لا يجد مكانا هادئا يختلي بنفسه لمذاكرة دروسه:

- إنهم يجلبون البركة معهم يا ولدي؛ كل هذا الخير والتجارة التي تكبر لأن بيت أبيك مفتوح لكل عابر سبيل؛ كلما فتحنا بيوتنا للناس فتح الله لنا أبواب الرزق.

لقد صار دكان أبيه المتواضع محلات تجارية كبيرة يقف فيها أخواه لمساعدة والدهم مع عمال كثيرين يرون بيت الحاج قائد هو بيتهم الكبير، ويرون في الحاج قائد أبا للجميع يرجعون إليه في شئون حياتهم، وله كلمة مسموعة ومحبة كبيرة سواء في القرية أو بين تجار مدينة إب.

والدته أيضا تصبح طاووسًا يتبختر سعادة بين نساء قريتها وسلفتها حليمة زوجة الحاج سلطان؛ تتباهى بكرم زوجها وحياتها المريحة في المدينة، وببيتها الذي يكبر ليتسع لأولادها ونسائهم وأطفالهم؛ حتى أعمال البيت المضاعفة تصبح مقدرتها على إدائها بإتقان مصدر فخرها الكبير؛ تفخر حين يضرب المثل بطعامها وحسن ضيافتها.

وبالكاد تأذن لضيفاتها بالمساعدة والدخول إلى المطبخ للعمل بجوارها. ترمي كل ثقل غسل الصحون والتنظيف والعجين على سواعد بناتها رغم صغر سنهن إلا أن كل واحدة بمثابة امرأة في نظر نساء القرية، كان ذلك قبل أن تزوج ولديها جميل وفاضل، ورغم أن جميل طلق زوجته التي رفضت العيش في بيت والده الكبير إلا أن زواج مختار من فتحية في وقت لاحق كان خير تعويض لها؛ ففتحية أفضل كناتها وأطيبهن.

حين قرر الحاج قائد الانتقال إلى المدينة كان من أجل مختار وأخويه ليتمكنوا من الالتحاق بالمدرسة؛ لكن جميل وفاضل تسللا إلى العمل في التجارة في نهاية الأمر دون أن يكملا دراستهما.

رغبة والده السكن في المدينة لم تأت من فراغ؛ فقد كانت جذور عائلة الإبي متغلغلة في تربة "الثجة"؛ فأجداده الأوائل كانوا من الأسر الكبيرة فيها وأفنوا في حروب الزيود ضد العثمانيين، كان لوقوف عائلة الإبي في صف الجيش العثماني أثره فقد سلبت الأرضي منهم وتشرد بقيتهم في الجبال، وفضل جده الكبير الاستقرار في جبل بعدان والعمل في الزراعة بعد اندحار العثمانيين.

أطلق عليهم لقب بيت الإبي نسبة إلى مدينة إب واحتفظ أبناء العائلة بنزعة التجارة وعشق التمدن فكانت لهم تجارة من مدينة إب إلى كل قرى المرتفعات.

قرر والد مختار ترك بيت القرية الكبير والأراضي الممتدة للأسرة في رعاية شقيقه "سلطان" وأبنائه الأربعة، الذين لم يلتحق أي منهم بالمدرسة سوى سالم رفيق مختار، جميعهم يرعون الأرض ويحلمون بالغربة في السعودية رغم خير الأرض الوفير بين أيديهم.

اشترى الحاج قائد الإبي مساحة كبيرة وسط المدينة من الأرض التي كانت تحت يد عائلة "الرضي" وأصبحوا جيرانا، وكعادة المنازل الكبيرة في المدينة حين تحيط بها الحدائق المسورة وأحيانا يفصل بينها سور واحد؛ لكن الرضي أصر أن يفصل بين سوري الحديقتين ممر طويل بدلا من اشتراكهما في سور واحد.

حرص الحاج قائد أن يبني منزلا واسع الأرجاء قوي الأساس ليتحمل ارتفاع طوابقه مستقبلا؛ وعد من أجمل بيوت المنطقة، يحمل طابع المدينة الجديد ممزوجا بأصالة الطابع القديم لفن العمارة اليمنية.

بيت الرضي كغيرهم من نقائل شمال الشمال قدموا إلى إب قبل عشرات السنين واقتطع لهم الإمام مساحات شاسعة من أراضي الثجة توارثتها أجيال هذه الأسرة وباعوا الكثير منها كما فعل الرضي، وباع للحاج قائد أفضل وأكبر مساحة أرض صارا بسببها جيرانا وأصدقاء وفي طريقهم ليصبحا أهلا بزواج الحفيدين عمر وفاتن.

ربط الجوار والصداقة بين الرضي وقائد الإبي وانتقلت لأبنائهما؛ فقد رافق مختار طاهر الرضي منذ صغرهما وكانا صديقين وزملاء دراسة، إلا أن طاهر الرضي بسبب اعتلال صحته تغيب في السنة الأخيرة قبل تخرجهما في معهد المعلمين واضطر والده إلى السفر به خارج اليمن من أجل العلاج.

في صغرهما لم يكونا صديقين فقط، بل جارين تربيا معا يأكلان على مائدة واحدة سواء في بيت الرضي أو بيت قائد الإبي؛ كان مختار يصر أن يكون المضيف دائما؛ لأن جدة طاهر الرضي لم تكن تحب وجود الأولاد الصغار في منزلهم.

هذه الصداقة لم تمنع نشوب معارك صبيانية كثيرة بينهما كان الحق فيها يعود لمختار، كان أشدها يوم عرف الأولاد في المدرسة باللقب الذي أطلقه الرضي على ولده طاهر واتهام مختار بفعل

ذلك؛ مما جعل طاهر يشعر بنفور نحوه رغم تبرئة مختار فقد زل لسان الرضي أمام الكثير.

عندما كبرا كبرت مساحة التنافر بينهما وصارا مجرد جارين يحفظان الود القديم.

وبقي الأقرب إلى قلب مختار ورفيق عمره هو سالم ابن عمه؛ فسالم موضع سره ومنادمته قبل أن ينكسر شيء غامض في علاقتهما.

****

ترك مختار لوالده زمام قيادته منذ مولده، لكنه كان حريصا على بقاء مساحة وجدانه بعيدا عن تعقيد عادات وتقاليد الحياة الرتيبة المرسومة له بعناية.

كان لهيئة جسده الذي يميل إلى الامتلاء، وطوله المتوسط مع استدارة وجهه، وبهاء جبينه الواسع المصقول ملمح مريح وهادئ، رغم مداومة يده على الارتفاع بين فترة وأخرى لتسوية النظارة الطبية فوق عينيه، إلا أن ذلك لا يؤثر على مظهر هدوئه،وحتى تلك الانحناءة المتوترة لكتفيه حين يجلس كطفل كبير ويداه على حجره تزيد من ملامحه المريحة.

لطالما نبهته غالية أن يستقيم بظهره أثناء جلوسه للقراءة، لكن وضعه في الجلوس دون استرخاء صار عادته الملازمة له.

تزوج التي اختارها له والداه، وأنجب كما يريد والداه، عمل مدرسا لأكثر من عشرين عاما دون أن تتطرق الرتابة إلى قلبه، صبورا كثيرا ما يغلبه المرح والانبساط في أعتى الظروف؛ يبدو

أحيانا كأنما لا يبالي أين تستقر به الحال؛ حين فصل من عمله كمدير للمدرسة بسبب أحداث البلد عاد والتزم كمعلم تطوعي من أجل الطلبة الذين خسروا التعليم بخسارة المعلمين. وحين ترك هذه المهنة بعد موقف صادم أثر به لأيام طويلة لم يفكر في العودة إليها مطلقا.

يجد راحته في القراءة والتأمل، يكتب قصائد نادرة يخفيها جيدا عن الجميع سوى غالية وسالم، أحيانا يرسلها له في غربته ويطلب منه اتلافها، كان وحيدا إلا من ابن عمه وأخته، وكم أوجعه تغير سالم بعد عودته من غربته الثانية.

يدرك مختار أنه منصاع لأبيه؛ ولوضعه الأسري؛ لعادات وتقاليد بيئته؛ لكن فضاء روحه كان ملكه.

اكتفى بفتحية زوجة وحبيبة؛ ولم يفكر أبدا بأي تجربة أخرى لفارق الاهتمام أو الفكر بينهما؛ كان يشفق عليها أكثر مما يحبها.

لم يحسد أي شخص على قصة حب جميلة عاشها أو زواج أتى كما يتمنى صاحبه.

كان يندهش لحرص سالم حول اقترانه بزوجة متعلمة وبنت مدينة، فقط ليبدو متفوقا عليه، وكأن هذا كل ما يطمح إليه سالم، التفوق بأي أمر على مختار.

لم يتوان سالم عن تفاخره باهتمام زوجته بنفسها وتعليمها أمامه، إلا أن هذا لم يؤثر على تقدير مختار ومحبته لفتحية.

أحيانا يشعر أنها عجوز متهالكة، وهي في أوج شبابها، كأنما لم تكن صبية يوما، لطالما شعر أنها هكذا منذ تزوجها طفلة، تبدو

امرأة عجوز لرصانة عقلها وقلة حديثها، وتصرفاتها الصبورة الكتومة، كأنه لا يكبرها بسنوات!!

يسأل نفسه أحيانا: هل أبدو مسنا هكذا مثلها ؟!

وقد تجاوز الأربعين بسنوات يشعر أنه شاب في ريعان صباه؛ عمله المريح كمدرس لا يشبه أعمالها في البيت.. هذا ما يثق به؛ فقد أرهقت فتحية في سن مبكر بأعمال البيت الموصولة وبأوامر والدته التي لا تنتهي.

كما أن شخصيته المرحة التي تأخذ كل شيء ببساطة وسلاسة لا تشبه شخصيتها المتزمتة المتعقلة حد الملل والرتابة.

هي تتآكل من الداخل؛ شدة عمتها والدة مختار ومسئولية البيت والأولاد وكل مشاعرها المكبوتة أفرزت هذه الصورة المتقدمة في السن.

لكنه أبدا لم تلفت انتباهه امرأة..

فقط زوجة جاره وصديقه القديم "طاهر الرضي" كانت تثير فيه شعورًا أقرب إلى الرهبة. امرأة شهد الجميع بفتنتها ودهائها، لكن شعورا غامضا ينتابه..إنها فتنة من نوع آخر.

رفقته بطاهر الرضي تحولت إلى نفور بعد التحاقه بالمدرسة كمعلم والتحاق طاهر بمجلس أبيه كمحكم؛ لكن زواج طاهر بشريفة قطع كل أواصر الصداقة؛ فقد تبدل طاهر كثيرا في تعامله مع مختار، لم يعد اتفاق زواج فاتن وعمر ساريا سوى بين الجدين، وبسعي من زوجة الرضي لأنها كانت من بنات القبائل وصداقتها بأم مختار متينة فهي منفذ الشكوى لها، تظل تشكو لجارتها كثيرا من

سطوة زوجة ولدها الشريفة التي لا تقيم لها وزنا في البيت، أو تبدي لها ذلك الاحترام الذي تكنه زوجات الأبناء للعمات؛ ولولا بقية احترام لعمها الرضي لطلبت من عمتها القيام على خدمتها جهرا، خاتمة كل جلسة شكوى بمقولتها التي حفظها الجيران لتكرارها في كل مناسبة:

– ما أن ماتت ستي تقية أم الرضي بكل جبروتها حتى عوضني الله بزوجة ابني أشد تسلطا وقسوة.... وتتنهد قائلة "ما يقطع الله على والف" يا أم مختار!!

لم يهتم مختار بنفور طاهر أو تعامله معه؛ فاقترانه بشريفة أيقظ فيه أطماع السيادة أكثر مما كانت، كأنما هذه المرأة تملي عليه أفعاله ليل نهار، ومن أجلها سيخسر الكثير.

لا لم يكن يهتم لأفعال طاهر بين أعيان المدينة وتجارها وما يفعله من أجل السيطرة على كل شيء مثلما أثر فيه تغير سالم ابن عمه عقب عودته من الغربة الأخيرة.

****

-2-

أول شجار بدا جديا بين مختار وسالم وهما طفلان كان على شجرة التين العملاقة في أطراف الوادي؛ اختصما، كلٌ يدَّعي ملكيتها بعد أن حفرا اسميهما عليها، الشجرة العتيقة التي كانت هناك قبل ولادة جدهما الأكبر، تقع في أطراف حدود أرض جدهما، يومها اتفقا على تسلق الشجرة ومن يصل القمة أسرع تصبح ملكه.

وكقردين صغيرين التهما طول الشجرة في سرعة ليستمر الشجار بقية اليوم؛ يتقاذفان ثمارها أكثر مما يأكلان وهما يتفحصانها من الدود الذي يغزو الناضجة منها. يمعن مختار في إغاظة سالم مداعبا وهو يقول:

-سأبني على شجرتي بيتا صغيرا أبقى فيه سائر عطلة الصيف حين أزور القرية؛ دائما أحلم ببيت شجرة مثل بيت الشجرة الذي تملكه عائلة روبنسون كروزو في مسلسل "فلونة".

فيخرج سالم لسانه مكشرا بسخرية قائلا:

-سأشنق أحلامك هذه على الشجرة؛ هذه شجرتي طوال العام يا روبنسون وليس في عطلة الصيف فقط.

في طفولتهما كان سالم يشعر بالحنق أحيانا من تلك الميزات التي يتمتع بها مختار؛ خاصة مشاهدة التلفاز الذي اشتراه والده

العم قائد؛ أما والده الذي رفض دخول الكهرباء حتى وقت متأخر؛ لن يقبل بدخول الصندوق الشيطاني كما يسميه إلى البيت.

لقد تمكن من مشاهدة التلفاز لأول مرة وهو صغير في القرية التي تزوجت فيها إحدى خالاته؛ فقد اعتادت والدته أن تذهب إلى زيارتها في القرية المجاورة وتأخذه هو وأخته لمشاهدة التلفاز في أحد البيوت حيث يجتمع عدد من نسوة القرية للفرجة، فيتأمل بعجب كيف لهؤلاء الناس كلهم أن يكفيهم هذا الصندوق!!

لم يكن يفهم شيئا مما يقولون لكنه كان يسعد كثيرا بمشاهدتهم يتحركون داخله إلى أن حدثت كارثة جعلته يرفض الذهاب إلى ذلك البيت تماما.

فقد اعتادت ابنة صاحبة البيت التي في مثل عمره الجلوس قربه، لكنها نعست ذلك المساء، ومع استغراقها في النوم على الحصير أفلت منها البول وأغرقت المكان ونال ثوبه القصير حصته من البول.

يومها كره الذهاب لمشاهدة التلفاز، وكره معه فتيات القرية، وإلى شبابه القريب وهو على ثقة أنهن يتبولن في نومهن.

أدخل والده الكهرباء مضطرا حين ولدت بقرتهم "حليمة" ليلا وكاد الظلام أن يكون سببا في نفوقها، يومها تجلى ذكاء والدته المستتر خلف شدة زوجها، وأكدت بحرص شديد على البقرة التي سماها حليمة بفرح كبير:

– قلنا لك يا حاج سلطان أدخل الكهرباء للبيت مثل الناس، أقله من أجل البقرة، هذه البهيمة المسكينة.

كان أول شيء اشتراه سالم من غربته الأولى هو جهاز تلفزيون ملون، استقبله أطفال القرية بزفة كبرى، وظل الأجداد يؤرخون للأحداث بذلك اليوم، فيقولون يوم وصل تلفزيون سالم، أو قبل وصول تلفزيون سالم.

كما حرص أن تكون عروسه من فتيات المدينة وليست من بنات القرية مخالفا رغبة والده في ذلك.

"سالم" هو الوحيد من أبناء عمومة مختار الذي اختلف عن بقية إخوته وأصر على الدراسة؛ فقد كانت له تطلعات وقراءات تشاركها مع مختار ابن عمه، كما أصبح المنفذ الوحيد لكتابات مختار في شبابهما، رغم أن اهتمام سالم بالقراءة خف كثيرا؛ ربما يعود ذلك إلى غربته وسعيه إلى تحسين وضعه المالي ومن ثم عودته من غربته الأولى ليتزوج ويُلحق به زوجته وينشغل بمزيد من الأعمال لتحسين معيشته المكلفة مع إنجاب زوجته هناك طفلهما الثاني "غانم" الذي ولد متعبا؛ فقد عانت أمه في ولادته مما تسبب له في بعض الضرر.

****

تشتد التجاعيد حول عيني سالم الضيقتين اللتين ورثهما من والده، كأنما وجهه قطعة جلد أحرقتها شمس الرياض؛ حين كان يقضي يومه كعامل بناء يتلقى هجيرها بصبر، قبل أن يجد عملا أفضل في غربته الثانية.

سالم بخلاف رجال عائلة الإبي جميعهم بقامات طويلة أما هو فيمتلك قامة أقرب للقصر ورثها من عائلة أمه حليمة، لكنه

ورث من أبيه كل صفاته الأخرى وطغى على شخصيته المكر والحرص.

يدرك أن عمره ذهب هباء في غربة بلا طائل؛ كل تعب العمر تركه مؤخرا للكفيل، كأنما كان يعمل من أجله وليس من أجل نفسه؛ كل ما أستطاع فعله بعد غربة خمسة وعشرين عاما هو بناء ملحق صغير جوار بيت العائلة في القرية ودكان صغير ترهقه متطلباته أكثر من مما تفيده.

لا استطاع البناء في المدينة كما تحلم زوجته، ولا استطاع أن يبقى في غربته بعد أن أصبحت أموال الكفيل تأخذ تعبه طوال الشهر.

لقد قضى كل عمره أجيرا لدى الغير يعمر أرضهم، وأهمل أرضه حتى شعر أنه لا ينتمي إليها.

يتمنى أحيانا لو بقي في أرضه منذ البداية فلاحا أو أكمل تعليمه، أو تاجر مثل عمه قائد وأولاده، لكنه فشل في التجارة ولم يستغل غربته في شيء ينفعه في كبره.

كانت نفسه معلقة بالغربة منذ صغره؛ المغتربون أول من اشترى الأراضي في المدينة، خرجوا من ضيق القرية إلى اتساع الدنيا، رأوا كيف يعيش الناس في البلاد الأخرى وقلدوهم، هم أول من قدم بالأجهزة الكهربائية حين كانت من عجائب الدنيا في قرى اليمن.

لكن عمه "قائد" لم يضطر إلى الغربة والعمل أجيرا عند الآخرين؛ لقد استثمر خير أرضهم ليتاجر منذ صغره حتى أصبح

من تجار المدينة الكبار؛ كان ينزل من نقيل بعدان محملا بغلة الأرض ليبيعها في المدينة ويعود بخير المناطق الأخرى عائدا إلى القرية، كانت الأيام تلك أيام خير هيأت لعمه ما لم تهيىء لأبيه الذي عشق الدعة والراحة بوجود أخيه النشط والحاذق.

تحدثه نفسه أن مال تجارة عمه وأرضه المترامية الأطراف في المدينة هما من أموال جده ؛ لهذا لأبيه الحق فيها أيضا، يتحسر: لماذا كانت حصة أبيه وإخوته البقاء في تخلف الريف كما تسميه زوجته بدور ؟!

ولأنه يشعر أن صداقته بابن عمه مختار أقوى من رابطة القرابة، يسبب له هذا الخاطر غصة لا يجرؤ على الحديث بها لأحد؛ لكن ولده غانم يفضحه أمام نفسه كل مرة، غانم الذي أفسدت الغربة حياته وعقله؛ فلم ينجح في دراسة ولا تجارة ولا فلاحة أرض مثل أبيه تماما، كم يحزن سالم أن لقب "الأخبل" هو كل ما أحرزه ولده بتعامله مع أقرانه في القرية.

يشفق سالم على ولده من غلظة طبعه وبطء فهمه؛ فقد كان سببا في مآله بهذه الصورة التي لم يرضها بعد فوات الأوان.

فقد ولد بقصور عقلي نتيجة تعسر ولادته، قيل لسالم يومها أن ولده عانى نقصا في الأكسجين أثر في خلايا معينة في دماغه وأورثه ثقلا في النطق والفهم.

لقد ولد أيام الغربة في الرياض، لم يكن يطلب شيئا إلا يناله شفقة به، إلا وقت أبيه الغارق في عمله، وأمه "بدور" المتعلمة

التي تتلهف إلى اللحاق بما فاتها من مظاهر الرفاهية؛ فتركت له الحبل على الغارب يأسا أو إهمالا.

أفاق سالم على ضياع عمره في بلاد الغربة فأخذ يوجه سهام حسرته إلى ولده قائلا:

- أنت لا فلحت في دراستك ولا فلحت أرض جدك ومستحيل تفلح في شيء بحياتك.

تواجه عبارته الدائمة هذه غلظة طبع غانم وفهمه البسيط فلا تحرك فيه ساكناً سوى كلماته البطيئة المرتخية وهو يقول:

- جهدك عليّ!! هو عمك قائد نهب حقكم، المال له ولعياله من بعده وخلاكم فلاحين على مكانتكم في القرية، هو تاجر في المدينة، وابنه مدرس وأنت تشقى باليومية.

يضم سالم شفتيه بصدمة لا يدري هل على بلادة ولده أم لدهشته من كلماته رغم قصور عقله الطبيعي في الفهم. أم لمصادفة الكلمات موضع هواجسه التي تنخر عقله، لكنه يكابر ويدفع ضيقه صارخا:

- أنقلع، قلع الله وجهك؛ هؤلاء أهلك وناسك.

فيلوح غانم بكفه وهو يشيح برأسه الضخم حنقا:

- أهلي ؟!! لا ما هم أهلي، هم أهلك أنت. أنا أهلي أمي وبس؛ لِمَ لا نسكن المدينة مثلهم ؟ المدينة أجمل من القرية وأمي من المدينة ما تحب قريتك، توعدها أنك تردها هناك وما تفي.

أنا بسافر الغربة وأشتري لها بيتًا هناك أفضل من بيت جدي قائد؛ وأنت خليك في القرية عند جدي سلطان يصيح عليك.

لعل ذنب سالم الذي لن يغفره لنفسه أنه لم يجد وقتا لسماع ولده أو تربيته، بدلا من سماع ثرثرة أمه عن حياة أهل المدينة وراحتهم فيها، كلام غانم هذا تلقنه له أمه ليس سواها، إنها تكمل ما نقص من عقله بكلامها وحسدها على أبناء عمه.

توغر قلبه دون أن تدرك أن تفكيره أبسط من أن يفهم كل شيء.

لقد أهمله ليس في صغره فقط حين التحق برفقة السوء، بل حين ترك الكراهية والحقد تملآن قلبه الغليظ بعد أن ذاق عسر المعيشة بعد نعيمها هو ووالدته.

****

-3-

ملامح طاهر الرضي من ذلك النوع الذي لا يوحي لك بالثقة؛ دائما ما يغرز في شعره عيدان الخشب الصغيرة التي ترافق وجبات الأكل في المطاعم؛ قبل أن يرتدي عمامة "القاوق" ويصبح محكما بين الناس مثل أبيه.

حين كان طفلا عديم الحاجبين كان يبدو منظره مثيرا للشفقة، لكن حين أصبح رجلا يقطب حاجبين غير موجودين أصبح شخصا لئيما منفرا.

أطلق عليه والده لقب الأبرط في زلة لسان لم يغفرها له طاهر أبدا؛ كان ولدا مدللا يكثر من الصراخ في وجه أبيه فزلت لسان الرضي بهذه التسمية التي تشير إلى أن ولده خفيف الحاجبين.

لا يدري كيف شاع هذا اللقب بين رفاقه في الحي والمدرسة، لكنه أوغر صدر ولده وزاد من شره وتطاوله عليه، كان طاهر يتهم مختار صديقه وجاره بأن له يدًا في انتشار اللقب؛ لذا حقد عليه دائما منذ صغرهما.

يعلم تماما أن اللقب أو "الذمر" كما يسمى في منطقتهم قد يقضي على هيبة الشخص تماما.

حرم طاهر من إكمال دراسة السنة الأخيرة من دبلوم المعلمين بسبب المرض، تقول جدته الراحلة والتي كانت تكره أبناء القبائل إنه أصيب بعين قبيلي خبيث مرّ من أمام حوش المنزل

واسترق النظر فيما كان طاهر يشرب على الريق كأسه المعتادة من اللبن الممزوج بالعسل والبيض البلدي النيء؛ لم يكن أحد يعلم كيف خمنت هذه العين الخبيثة!!

كما أنها لم تكن تعلم أنه فقد حماسته لإكمال الدراسة بسبب تقدم جارهم مختار عليه وتخرجه قبله. كل محاولات أبيه الرضي ووالدته باءت بالفشل كي يعوض العام الذي فاته بالالتحاق عاما آخر.

فضل أن يترك التعليم تماما وأن يكون مثل أبيه سيدا يفض النزاعات بين الناس، وأحيانا يتسبب في حدوثها كي يفضها في النهاية.

لم يكن يعلم أنه سيبز أباه في المسيدة بعد انضمامه لتنظيم السلاليين الذي يطالب بعودة حقهم الإلهي في الحكم.

زواجه بشريفة الفاتنة زاده تطلعا للسيادة على من حوله. خطبها والده الرضي من أقاربهم في خولان تحت إلحاحه هو.

حين وصلت عروسا وقبل أن ترتب ثيابها في خزانتها أخرجت صورة كبيرة بإطار خشبي مذهب مسحتها بعناية وعلقتها أعلى سرير نومهما.

قائلة له بدلال: هذا سيدي حسين سيد شهدائنا، يجب أن توضع صورته في كل بيت، وأن تكون كلماته نور طريقنا في الحياة ونحن نبدأها معا يا طاهر.

فقال لها مبهور الأنفاس: ومن لا يعرف سيدي حسين رضي الله عنه، بركة هذا الزمان، والقرآن الناطق الإمام ابن الإمام. آه يا شريفة الفاتنة لقد ملكت باقتراني بك جنة الدنيا والآخرة.

من ليلتها تغير بيت الرضي بأكمله وصاروا من أولياء الله كلٌ بطريقته.

****

منذ دخولها بيت الرضي فرضت نفسها سيدة على الجميع، وأصبحت كلمتها هي المسموعة، هذه بركة الشهيد السيد عليها ولا شك؛ فهي من أكثر المؤمنين به وبكلماته النورانية التي شقت طريقها في هذه المدينة التي ألف أهلها النفاق والشقاق طوال عهودهم.

أخبرتها عماتها أن أقاربها الذين يقطنون جهة "منزل" أصبحوا أشبه بالقبائل إلا بعض الأسر الرفيعة مثل بيت الرضي.

هؤلاء لا يزوجون بناتهم لغير الأشراف مثلهم؛ لكنهم يتزوجون بنات القبائل الجميلات؛ ولعل حظها العاثر أوقعها في الزواج من قريبها طاهر الرضي، وكان أولى له أن يتزوج قبيلية مثل أمه، لكنها ستجعله حظها الأسعد بانصياع طاهر الرضي لطلباتها ورغباتها.

لم تحبه منذ لمحته يوم خطبتها؛ فلم يخالجها الفرح أو الشوق أن تتعرف عليه أكثر؛ طالعته من خلف النافذة مع صاحباتها وعادت لتجلس بصمت منتظرة أن يتفق الأهل على مراسم زفافها.

حتى ذلك الإعجاب الذي خالط قلبها نحو مختار جارهم لم تحصل عليه أفعال زوجها الأنانية المنفرة، تكرر على مسامعه دائما مقارنتها بينه وبين مختار الذي استحوذ على قلوب الناس حوله لأنه ابن التاجر قائد الإبي، وعليه هو أن يفوقه في ذلك فهو السيد هنا، لكنها تثق في نفور الناس منه ولولا السلطة والمكانة التي لعائلته لانفض الناس من حوله!!

كما أن شغف طاهر الرضي بها واستجابته لكل طلباتها وأوامرها جعلاها تتقبل الحياة معه وتنجب ولديها علي وفاتن.

فاتن الفاتنة حقا.. حملت سحر والدتها والاسم الذي اختاره أبوها.

كانت تود تسميتها بالزهراء أسوة بجدتها فاطمة الزهراء، لكن طاهر توسل إليها أن تسميها فاتن لتكون اسمًا على مسمى.

نعم، هي تكره زوجها بوجهه المنفر وأمه القبيلية أيضا، وبدائيته العجيبة؛ كل شيء فيه تمقته حتى ملابسه وصوته، وطريقة كلامه وتفكيره، لكنها لن تترك فاتن وأخاها لتربية جدتها القبيلية لتفسد عقليهما بهذرها الذي لا تطيقه، ستدفن مشاعر النفور هذه وتدفن كراهيتها من أجل صغارها وأمان مستقبلهم.

من أجل أحلامها التي يحققها طاهر الرضي في امتلاك كل شيء.

ثم إن أسرة الرضي تملك أراضي شاسعة وهي من كبريات العائلات في المنطقة.

جدهم الكبير عده أهالي المدينة والقرى من أولياء الله؛ اشتهر بينهم ببركته وصلاحه. كان يقرأ على المرضى منهم فيشفيهم الله، ويضع بركته على الرزق فيتكاثر، يقال إن الأهالي كانوا يتسابقون على حروزه وتمائمه؛ أعطاه الله حب الناس ورزقهم لأنه من أوليائه الصالحين، والرضي وولده ورثا هذه المكانة العظيمة؛ وهذه المكانة هي التي تخدم طموحها وآمالها التي تسعى إليها.

مع هذا هي لا تتهاون عن نهر زوجها حين يتصرف بما لا يعجبها أو يناقض إرادتها فتهدده ساخطة:

- أصبحت من مخالطة القبائل تفكر مثلهم، أنت لا تستحق أن يصلي عليك كل مسلمي الأرض عقب صلواتهم وهذا منطقك وتفكيرك، عليك أن تسير وفق قولي يا طاهر وإلا فلن يجمعنا بيت أبدا.

تقسو عليه رغم إدراكها أنه يبذل قصارى جهده كي يملأ عينيها بأفعاله وأقواله، ويستمع إلى مشورتها في كل شأن وهذا يكفيها.

أبوها أيضا، كلما جلس إلى عمها الرضي هالته تصرفات الرضي المتبسطة وعدم حماسته في شئون السياسة وحكم البلد، كان يقول له دائما:

- أفق يا الرضي نحن اصطفانا الله وفضلنا على الناس؛ نحن أحفاد النبي والحكم في قريش بأمر الله ووصية جدنا رسول الله. وهل يستطيع الناس الوصول إلى رضا الله إلا بواسطة أوليائه الصالحين

مثلك، ما أكمل وأجمل أن يحكم الأولياء ليضمن الناس الدنيا والآخرة.

كل شيء تقوله وتأمر به الشريفة شريفة تستجيب له الأسرة كلها؛ إلا مسألة زواج ابنتها فاتن من عمر ابن مختار؛ تجد عمها الرضي وزوجته القبيلية يعتبرانه أمرًا محسومًا، وهذا ما لن يحدث أبدا..

لن تقبل أبدا أن تكون الشريفة ابنة الشريفة مطية لقبيلي.

****

ربما لأن الرضي تزوج من بنات القبائل أصبح أكثر قربا منهم، لم يكن على وفاق مع ولده طاهر المتعطش للسيادة والبطش، يحدث نفسه: منذ كبر هذا "الأبرط" تغير وصار مرتبطًا بأبناء عمومته فكرا وميولا.

كان الرضي يرى نفسه مثل جده وليا من أولياء الله، يحكم بين الناس ويسير بينهم ببركة الأولياء من سلالتهم الطاهرة.

قبة ضريح جده صارت مزارا للطيبين من الناس بعد أن أيقنوا ببركته عليهم؛ حين كان يدعو السماء فتمطر ويمسح على ضرع البقر فيدرّ.

ذلك الزمان النقي الذي كان الناس فيه على فطرتهم يضعون الأشراف في منزلتهم الطاهرة، ويقنع الآخرون بمنازلهم التي تعارف عليها مجتمعهم، وكما أن العين لا تعلو على الحاجب فهكذا الناس لهم مقامات ومراتب، وكان قدر الله لسلالته الطاهرة أن يكونوا سادة من بيت النبوة.

لكن الآن فسدت عقول الناس وصاروا يطلقون على هذه المكانة التي وهبها الله لأوليائه مسميات فاجرة.

أحيانا لا يلوم أبناء عمومته منذ استعادوا زمام الحكم في شدتهم عند ضبط موازين الأمور، وكما يقول ولده الطاهر: لا بد أن تستباح بعض الدماء ليستتب السلام على أيدي الأقوياء من الأولياء.

رزق الرضي من زوجته بثلاثة أولاد وأربع بنات رفض طاهر تزويجهن لأي رجل ممن تقدم لهن وزوجهن إلى قرى عمران وأرحب على رجال لا يعلم عنهم شيئا سوى أنهم من السادة مثلهم.

طاهر أكبر أولاده الذكور ومن أرهقه كثيرا؛ كان ولدا مدللاً في صغره؛ وصار زوجا أنانيا، والآن هو أب لئيم؛ يماطل في إتمام زواج فاتن وعمر ابن مختار لذات السبب الذي رفض زواج أخواته، وهو أن "عمر " قبيلي ليس من السادة.

لقد كبر رأس ولده منذ صار يدخله بين رؤوس الكبار من جماعتهم.

حتى "علي" حفيده الوحيد كان على شاكلة أبيه إلا أنه أخذ ضعف جده الرضي.

فلا رأي له في شيء بخلاف عمر ابن مختار جارهم وهم أتراب درسا معا قبل أن يذهب طاهر بولده للدراسة خارج اليمن.

لم تراود الرضي أحلام الزعامة السياسية، كان يكتفي أن يقضي بين الناس ويحكم بينهم على مذهب الأئمة الصالحين، كانت

تكفيه كل تلك الأموال الطائلة التي تصب في حجره، وكل خيرات اليمنيين من أبناء القبائل التي تساق إلى بيته من أيام أجداده.

لم ينقطع عنهم العسل البلدي يوما في أي وجبة، ولا خلا بيتهم من أجود أنواع البن والحبوب والفواكه والمكسرات والتوابل والشياه. حتى البيض الطازج واللبن وكل أصناف المزروعات.

كان يسعى أن يكون بركة تحل بين الناس كجده الكبير الذي وفد مدينة إب فأقطعه الإمام الأراضي والأملاك. وليس نقمة كابنه وأبناء عمومته الذين يسكبون الدم كي يحصلوا على السيادة والمال، لم يكن مقتنعا تماما أن ما يسعون إليه هو السلام، كان أولى بهم سلوك طريقه في التلطف والحيلة من أجل ذات السيادة والحصول على خير القبائل.

-4-

- تعالي أعلمك القراءة والكتابة يا فتحية.
- ولِمَ يا مختار؟ حتى لو تعلمت، فلن أقول الشعر مثلك ولن أكتب مثل غالية.

فتحية لا تنسى أنها تزوجت أستاذ مدرسة، أول أستاذ في قريتهم مختار ابن قائد الإبي؛ أمنية كل فتيات القرية والقرى المجاورة، كانت هي المحظوظة التي اختارها الحاج قائد لتتزوج ابنه وتسكن المدينة، اختارها رغم أن لا شيء يميزها عن باقي فتيات القرية، لم تكن باهرة الحسن أو حتى تفك الخط. لكنها كانت ابنة الحاجة نعايم الذي ملأ صيتها القرى بحسن تربيتها لبناتها وكيف أن الطعام التي تصنعه نعايم لا مثيل له، يتحدث الرعية أيام الزراعة والحصاد أن قرص الخبز من يدها يستظل به سبعة رجال، لكبر حجمه ومقدرتها على مد العجين في تنور الخبز المصنوع من الفخار وهو يتقد بالجمر المشتعل؛ يشهد الجميع بتلك البركة التي حلت على لقمة الطعام من يدها، وكيف أن بناتها كلهن مثلها في طيب أنفسهن وإتقانهن.

فتحية تحب زوجها مختار كل الحب لكنها تعجز عن إظهار ذلك الحب بالشكل الذي يرضيه، حتى إنها لا تدري ماذا يرضيه تحديدا، لم يسبق أن تمنى طعاما ما لم تطبخه له، ولم يحدث أن تركت له ثوبا غير نظيف أو مكانا غير مرتب، لا تتوانى أن يظهر في أبهى

مظهر أمام الناس حتى زميلاته في التدريس،؛ لم يطلبها إلى الفراش مرة وتمنعت أو رفضت حتى وهي في أشد حالاتها تعبا.

تمد الموائد الفاخرة لضيوف عمها وزوجها وحتى أبناء عمها في أي وقت يحلون فيه، لم تنتظر يوما أن يطلب منها أحد فعل ما ينبغي عليها أن تفعله.!!

أليس هذا هو الحب ؟ ألم يقل الناس إن الحب بالقلب؟! هكذا سمعتها من الجدات والنساء العارفات بأمور القلب، لكنها تترجمها بكل ما أوتيت من قوة ومن صبر. تترجمها أفعالا تسعده ولا تغضبه أبدا، إلا أنها تغار غيرة مجنونة إذا ذكرت عمتها شريفة زوجة طاهر الرضي أمامه، فإذا غارت اشتكت لعمها الحاج قائد، فعاتب الحاجة أم مختار قائلا:

– تغير الزمان يا أم مختار؛ لم يعد الرجال والنساء يجلسون جنبا إلى جنب في المناسبات والزراعة والحصاد، لم تعد تلك الثقة تسود القلوب، ولا تلك الفطرة السليمة حين تكون امرأة جارك هي أختك ومحرمك، كثرت الأدوات التي تزين النساء في عيون الرجال، وكثر الفراغ والأهواء فكفي عن وصف فلانة وعلانة لولدك؛ لقد بلغ العمر الذي يعود فيه الرجل مراهقا. ويضحك ممازحا.

تعرف أنها لا تبدو كشريفة زوجة طاهر الرضي، وهما قرينتان في ذات العمر، يقهرها كثيرا حديث عمتها عن جمال وسحر الشريفة جارتهم، وتكاد تحترق كلما وصفتها لزوجها مختار،

تحترق بصمت وحزن وعمتها تختتم أوصافها ناصحة إياها أمام مختار:

-ما يروح "نقش الخضاب" إلا وقد في ثاني يا فتحية تنقشي بالحناء مثل زوجة طاهر الرضي؛ واملئي عين زوجك فلا تغاري.

لم ترهقها كل أعمال البيت المتراكمة وشدة عمتها في ذلك كما يرهقها كلام عمتها هذا. هي تملأ عينيه بأفعالها من أجله وأجل أولاده ووالديه وإخوته الكبار ونسائهم وأطفالهم؛ كانت عمود البيت كما يسميها عمها وهو يثني عليها بإيعاز من عمتها والدة مختار حين ترضى عليها.

نعم؛ كانت فتحية أم عمر عمود البيت تعرف موضع كل شيء في البيت الكبير، كل شيء حتى تلك الأشياء الضائعة من اهتمام أولادها حتى تلك الأشياء الصغيرة والتي لا تخصها، كلما ضاع شيء في البيت سألوا الأم الصغيرة التي هرمت كثيرا فتصف مكانه كأنها وضعته للتو.

كان ذلك قبل أن تفقد حواسها وبصيرتها عقب المصائب التي توالت عليهم.

*****

على أيام مختار كانت المدارس مختلطة، ثم فصل الجنسان في مدارس خاصة بالذكور والإناث.

وحين أصبح مديرا للمدرسة في الفترة المسائية أتت شريفة زوجة طاهر الرضي لزيارة ابنها "علي" في المدرسة كان لقاؤه الوحيد بها، شعر فيه أنها تكن له إعجابا خفيا، بل رغبة تسيل من

كلماتها الناعمة؛ وهي تسأله عن مستوى ولدها التعليمي، وتشكو له من مضايقات بعض الطلبة له، لم تكتف بصوتها الناعم ولهجتها المثقلة بالدلال فضاعفت نعومتها بنظرات عينيها عبر النقاب وحركات يديها المزينة بنقوش الحناء الأحمر، لا يدري مختار لماذا أورثه مرأى بياض يديها المخضبتين بالحناء شعورا بالنفور عوضا عن الجمال الذي كانت والدته تصفه، قابلها بكل البرود الذي يقابل به زوجها؛ وكأنما تعاليه يثير شهيتها تماما مثلما تثير فيه حركاتها أحاسيس من القلق والريبة، أطالت في وقفتها معه وتغنجها في الكلام.

أرسل إلى سالم رسالة يقص فيها أمر تلك الزيارة التي أثارت مخاوفه من نواياها؛ فسالم هو موضع سره رغم بعد المسافات، كتب إليه قائلا:

-هذه المرأة رغم جمالها المسرف ومكانتها الرفيعة يسكنها شيطان متعطش للاستحواذ على عقول وقلوب الآخرين، لا عجب أن زوجها ينصاع لها بكل ذلك الخشوع، أجد أن أفضل السبل لصدها هو ردم كل باب نحوها ولا أدري كيف ونحن جيران بكل هذا القرب ؟!!

لقد كانت المرة الوحيدة التي زارت المدرسة وسمع صوتها الرخيم بلهجتها الساحرة، وتحدث معها في شئون الأولاد عمر وعلي ودراستهما، ولم تكررها مرة أخرى من حسن حظه، ربما معاملة مختار المتعالية والحازمة وربما بسبب ولدها فقد غضب الصغير "علي" لأنها أحرجته أمام زملائه بمجيئها، قال لها حانقا:

-لا توجد أمهات يزرن الأولاد الذكور أبدا، سيضحك زملائي حتى آخر العام لفعلتك هذه؛ أنا رجل ولست بنتا.

الآن بعد كل هذه الأحداث المتلاحقة في السنوات الأخيرة التي عرت أستار هذه السلالة التي أخفت جشعها وحقدها وما كابدته عائلة قائد الإبي منهم من مضايقات يتراءى له ساعد شريفة زوجة جاره طاهر الرضي وهي ترفعه كشعاع فضي لتغطي وجهها المستور بنقاب شفاف في إغراء واضح تجاهله عمدا ممزقا غلالة الإعجاب في عينيها الفاتنتين.

يتذكره وهو يرتفع بثقل الدلال وأساور الذهب المرصوصة حتى نصف الساعد، هذا الخير الذي يرفلون فيه وهذا الذهب الذي يكنزونه وكل الأراضي التي بسطوا عليها هي ملك أناس مساكين، وليس لهؤلاء الإقطاعيين ممن جعلوا أنفسهم سادة وكأن البقية عبيد سوى عار اللصوصية والجباية هم ونساؤهم.

-5-

تأملها من بين سحب الدخان. غالية لم تكن ساحرة الجمال؛ كانت عادية الملامح لكن روحها جذابة، وذكاءها مفرط، ربما لهذا لم تقتنع بزواجٍ ثانٍ يناسب طموحات والديها.

لقد استماتت في رفض أن تكون زوجة ثانية لابن عمها ناصر، وعانت في مواجهة الأسرة كثيرًا من النقد والمقاطعة والمعايرة أيضا، وقد أورثتها هذه المشاكل حزنا دفينا، وخوفا من المواجهات.

ابتسامتها العريضة لا دخل لها بعينيها الحزينتين؛ لذا يحتاج المرء إلى مجهود للربط بينهما وإن كان الأولى أن يقسم ملامحها إلى نصفين؛ عينين حزينتين وشفتين رقيقتين تبتسمان لكل شيء.

جلسا على سطح الدار كعادتهما غالب الأمسيات، حين يختليان بنفسيهما بعيدا عن أجواء المنزل المكتظة، يتناولان الشاي بصمت، أحيانا تلقي غالية آخر ما كتبت على مسامعه أو يقرأ لها إحدى قصائده. تبسمت وهي تشاهد جانب وجهه الصامت وقد أظهرت أشعة القمر خطوط ملامحه، تنهدت مداعبة وقد وصلتها رائحة السيجارة التي نفث دخانها:

- كنت أعرف أن الله خلق لك هذا الأنف الجميل ليحمل النظارة فقط.

ضحك، فسألته بابتسامة ماكرة يغلفها العتب:

– ما فائدة السيجارة يا مختار؛ رائحتها تثقل الصدر فكيف بمرورها فيه ؟!

ابتسم بشرود:

– لا شيء؛ ربما تجعل الصدر دافئا ممتلئا لبرهة وحين نطلقها تأخذ معها جزءًا من الاهتمام بتفاهة الحياة.

– أنت لم تدخن السجائر وأنت صغير السن أو مراهق، لماذا الآن وقد تجاوزت الأربعين بسنوات ؟ أم لكونك لم تعد معلم مدرسة تحللت من أشياء أخرى ؟

أطلق ضحكة صافية وهو يقول:

– ربما لأنه لم تعد في العمر سنوات كثيرة كي أخاف عليها، ثم من قال لك إني لم أدخن قبلاً، فقط لا أحب أن أجاهر بذلك أمام أبي أو أولادي، أحتفظ ببعض الأمور الخاصة لنفسي.

أريد أن أكون قدوة حسنة لأولادي، ومرضيا لأبي، لكن رغبة التدخين عجيبة يا غالية.. ضحك في وجهها المقطب قائلا: جربيها وقولي لي كيف تشعرين.

يومها تناولت أول سيجارة من بين أصابعه، ربما لكي تطلق من صدرها مع أنفاس السيجارة كل همومها الخفية، أو ربما تملأ بدفئها صدرها الفارغ، لكن يبدو أن همومها أثقل من أن تطلقها سيجارة.

لا أحد يدري أو يهتم كيف تشعر غالية حتى حنو أخيها مختار بعيدا جدا عن حاجتها، وحتى لو علم من حولها كيف تشعر سيكون على النقيض مما تؤمل، سيسخرون منها أو في أحسن

الأحوال سيحتقرون حاجتها في أعماقهم، رغم أن شعور الجميع سيكون مثلها لو كانوا في حالتها.

تحدث مرآتها ما أن تستيقظ فجرا لأعمال البيت الشاقة التي لا تنتهي: ابتسمي يا غالية، هكذا بحب ورضا وقلبك ينزف، أكاد أسمع قطرات نزيف قلبي تسقط في أحشائي قطرة قطرة.

لا يعلم الذين ينامون في أحضان محبيهم ماذا تحدث وسادة خالية من فراغ كلما تقدم بأنثى العمر؛ كم يتبعثر قلب لا تضمه ذراعان في نهاية اليوم ؟

أنا أيضا أحتاج إلى من يقول لي بحب: صباح الخير، هل نمت جيدا ؟

أية أنثى تحتاج إلى من يخبرها أنها مشرقة مثل الصباح فقط لأنه يراها هكذا!!

أن تمنح الحب بسخاء لا يعني أنك لست بحاجة إلى من يعطيك قليلا من الحب.

تبتسم لمرآتها كأنما تبتسم لأفكارها فقط.

أن تفكر في الحب، الزواج، شخص يريدها بكامل رغبته كما تريده، كم هذا الأمر فضائحي ومثير للتبكيت أمام نساء إخوتها وبنات عمومتها وكل من حولها حتى نجوى صديقتها الوحيدة التي تبرأت من أنوثتها وحاجتها ستجد الأمر مثار سخرية.

هكذا تربت فتيات الريف!! لا ينبغي أن تتحدث البنت عن مشاعرها، فهذا عيب وأمر جالب للعار. وهكذا هن النساء، كل

امرأة تنظر إلى عورات الأخريات وتنسى أن لها نفس العوار. إذا سمي هذا الشعور فعلا عورة. تعود لتحدث نفسها بسخرية:

– المعزة تضحك على مؤخرة أختها كما يقال.

بعودة غالية مطلقة إلى بيت والدها، شعرت بغربة الضيف الثقيل؛ لم يعد لها ذات المكانة أو حتى المكان. عندما تخرج البنت عروسا من بيت أبيها تنقطع علاقتها بذلك البيت، تصادر حجرتها أو زاويتها وترث أخواتها أو بنات إخوتها فراشها وما يخصها، تصبح غريبة وتحل فيه مجرد ضيفة.

في حين تأتي فتيات غريبات هن نساء الإخوة ويتملكن كل شيء في مرتع الصبى والطفولة. تبحث الفتاة عن ذكرياتها فتجدها محيت كأنَّها ماتت وليس تزوجت.

يتردد في البيت اسم غير اسمها ويصبح لغيرها الدلال ولها ركن الضيفة الثقيلة أما إذا حلت مع أولادها الذين هم بنظر أهلها عيال الناس فحالها أشد سوءًا وخيبة، هذا إذا لم ينزع منها أولادها ويرمون إلى بيت طليقها.

لكن ماذا عنها وقد زوجها أبوها طفلة، وعادت كما ذهبت وحيدة غريبة، لم يكن لها رأي في الزواج أو الطلاق؛ تخاف والدها الحاج قائد كثيرا، لا تستطيع أن تقول له إنه ظلمها وجعلها تعيش الحزن مرتين في زواجها وطلاقها، فكل ما كان يتمنى لها كأب محب هو الستر والسعادة كما رآهما.

اختار والدها زوجا مناسبا لها، كان زواج "شغار" ومع ذلك فهو يحدث كثيرا، وناجح في أغلب الزيجات، لم تبق مع زوجها

سوى ثلاثة أشهر وسافر إلى غربته، أخوها الأكبر جميل طلق زوجته بعد ثلاث سنوات من المشاحنات العائلية وعدم الإنجاب لتصل ورقة طلاقها أيضا وقد أوشكت أن تنسى ملامح زوج يفصلها عنه قارة وبحر ومحيط.

تزوج أخوها مرة أخرى واستفاد من تجربته ببناء بيت منفصل عن بيت أبيه وأمه، وإن كان ضمن سور البيت الكبير للعائلة.

لكن هي بقيت كقطعة أثاث عادت إلى البيت في ركن مهمل لم تعد سلوتها سوى أخيها مختار يهديها الروايات وكتب الشعر ويصر على أن تملأ وقتها بالقراءة.

تقرأ عن الحب كثيرا، لكن الحب في الخيال أجمل بكثير من الواقع. الحب حولها رتيب يفتقد الشغف، هكذا ترى زواج مختار وفتحية.

تحلم بالحب كثيرا؛ أن يأتي الرجل الذي يحبها وتحبه، يأخذها كما هي مطلقة، أو كما يطلق عليها "راجع"؛ بضاعة أعيدت إلى رف من رفوف تجارة أبيها.

تحلم..لكن الطفلة ابنة شقيقها مختار التي تسللت إلى كتفها طولا أقنعتها أنها فعلا تتقدم في العمر وأن الانتظار لعبة اليائسين فقط.

لا منفذ إلى الحياة أمامها هنا، لن تكمل تعليمها كصديقتها نجوى، لن تذهب خارج أسوار منزلهم فهي مطلقة؛ الكل يضع

المطلقة تحت المجهر طوال الوقت، ولم يكتشف أحد بعد تلك الجرثومة التي تسبب نفور المجتمع من ندبة المطلقة.

نجوى أحسن حالا؛ تمتلك أسرتها انفتاحا لا تملكه عائلات الأرياف، رغم طلاقها إلا أنها عادت لتمارس حريتها أضعاف ما كانت، أكملت دراستها ومارست العمل وصارت تتحدث عن حقوق النساء المهضومة في اليمن وتطلق على نفسها ناشطة حقوقية، أتاحت لها ثورة فبراير مساحة حرية لا تحلم بها فتاة في بيئة غالية.

تحدثها نجوى عن يوميات الثورة وقصص تشارك الرجال والنساء في صنعها في قصص أقرب للخيال بالنسبة لغالية، تكرر عبارة حقوق المرأة كثيرا، لكن غالية وضعها مختلف لم يكن لها حقوق تذكر حتى تتحدث عن هضمها.

حتى حقها الوحيد في الذهاب إلى القرية صار محرما عليها؛ فأولاد عمومتها وأقاربها يعاملونها كمطلقة بلا رجل بحاجة للستر. المرأة بلا رجل لقمة في متناول أيدي الجميع، هكذا تقول أمها، لهذا أراد ناصر إضافتها إلى زوجته الأولى كأنه يقدم معروفا بسترها.

يجب أن تختفي عن أنظار الناس حتى لا تصبح مرمى أطماعهم ثم تكون مضغة أفواههم، لم تعد تظهر حتى في مناسبات عائلتهم الكبيرة، أو تفكر في مرافقة أمها لزيارة أحد بعد رفضها لناصر ابن عمها.

لكنها تحن إلى القرية؛ فتلك الزيارات وهي يافعة عالقة في روحها وذكرياتها وربما كانت هي أجمل أيام عمرها.

تتذكر تفاصيل الريف والوادي الفسيح حيث كانت تذهب مع بنات عمومتها للرعي أو جلب الماء والحطب، تتذكر تلك الصخور التي تتناثر في الوديان ويستحيل زحزحتها، حين تلتف حولها حشائش الوادي باستكانة للظل، تلك الصخور كانت واحات جلوس الرعيان والراعيات في لجة الخضرة حولهم. هذه هي علاقة الحب وتبادل العطاء بين الجبال والوديان.

يتخير الرعيان الجلوس عليها كأنها عرش بلقيس، الصخور السمراء كانت تسمى الجوس، لا تدري أصل التسمية، لكنها تشتاق الجوس المتناثر في وديان بعدان..

الجوس الذي سئم صمت الجبال مثلها فآثر الثرثرة مع الرعاة، فتدحرج ليستقر كالشامات على صدر الوادي الأخضر.

كانت تقبع على ظهر الصخرة تنتظر شروق الشمس وهي ترفع غلالة الظلمة عن الوادي كنقاب شفاف من الحرير، تعري كل شيء.. حتى قلبها يصبح عاريا أمام الشمس.

تستحلي دفئها وتتمطى ككل الزواحف التي تحلم بالطيران وتطوقها قيود الأرض.

وحين تشتد قسوة الشمس تنسل إلى جوار الصخرة، تسند ظهرها إلى صلابتها وتستظل بظلها البارد وتحلم أحلام اليقظة.

ما أن تهدأ شدة الحرارة حتى تعتلي صدر الجوس؛ تتأمل الغروب وتحتضن آخر أشعة الشمس.

كأنما تلك اللحظات كانت كل نصيبها من الراحة والسعادة عندما كانت ترافق أمها في زيارات العطل الصيفية ومناسبات العائلة مع بقية إخوتها.

لكنها هنا بين جدران أربعة، تمر حياتها بلا طعم أو لون أو رائحة؛ حياة رتيبة لا تنتظر فيها شيئًا يستحق الانتظار، أو تحلم بأمر يستحق الحلم.

إلى أن أرشدتها صديقتها نجوى إلى طريق لم يخطر على بال الأمهات والجدات!! تغيرت حياتها عندما أرشدتها فيه إلى عالم الإنترنت وصنعت لها صفحة على الفيس بوك لتكتب فيها خواطرها باسم مستعار، لقد صنعت لها عالما كاملا مستعارا، تبدو فيه بهيئة روحها النقية فقط.

وكما علمتها صديقتها قائلة: اكتبي كلماتك على جدران الآخرين حتى يصبح لك جمهورك وقراؤك.

كانت تخاف كثيرا أن يعلم إخوتها أن لها صفحة على مواقع التواصل؛ فدخول عالم الانترنت ينظر لفاعله كمقترف المعاصي جهارا، فكيف بفتاة تضيق حولها دائرة العيب حتى تكاد أن تخنقها.

حرصت كثيرا ألا يعلم أحد رغم أن نجوى كانت تطمئنها قائلة:

-لن يعرف أحد ما دمت باسم مستعار ولم تخبري أحدًا، ثم أن دخول النت لم يعد كما كان سابقا؛ الإنترنت في منزلكم مقتصر على الرجال مثل كل شيء يبدأ خاصا بالرجال ثم يتدرج الناس في

تقبله، أتذكرين أول امرأة اشترت هاتفا خلويا في مدينتنا؟.. ظل الناس يتحدثون عن سلوكها الشائن وقتا طويلا. كيف أنها ردت على اتصال أخيها أو أبيها في الشارع هكذا أمام المارة وسمع الناس صوتها تتحدث!!!! لقد كان تصرفا غير مقبول وضع احتمالات مروعة لفكرة امتلاك امرأة لهاتف محمول..

كيف يمكنها أن تصدر صوتا في الشارع يمكن لأي شخص أن يلتقط غمغمته تحت النقاب السميك!! وماذا لو حصل رجل ما على رقمها واتصل بها وسمعها تقول ألووو قبل أن تغلق السماعة وهي ترتجف كدجاجة فاجأها صقر، وتطلق نجوى ضحكة رنانة قبل أن تضيف لقد كان الرجال يرددون عبارة:

- لا أحد يدري أين وصلت قلة الحياء بنساء هذا الزمن!!

وأصبح مشهد الموظفات القلائل في المدينة وهن يشترين الهواتف من محلات حاجب لا تحتمل لذوي النخوة والغيرة من الرجال، كان الآباء والإخوة يعودون إلى منازلهم غاضبين إذا شاهدوا منظرا سيئا كهذا يحدث أمامهم ويصبون جام نقمتهم على "مكالفهم" في البيت محذرين من مجرد التفكير في شيء منكر كهذا. أن تحصل المرأة أو الفتاة على هاتف محمول!!!!

كان يعد فسادًا يستشري في الأرض لذا يحارب بقوة ولو بخلق القصص المرعبة لأخطار الهاتف بأيدي النساء. أتذكرين هذه وغيرها من القصص يا غالية ؟

حين اشترى الناس أطباق الستلايت وقبلها التلفزيون وغيرها من الأمور المجهولة للناس كيف حوربت وظهرت حولها قصص مرعبة نراها اليوم مضحكة. الزمن كفيل بكل شيء..

فترد غالية بضيق:

- الزمن كفيل بكل شيء حتى بالقضاء علينا انتظارا لأشياء تأتي متأخرة دائما.

الزمن لا ينصف قلوبنا للأسف، ولا يعطينا حقا مشروعا إلا بعد فوات الأوان.

دائما يأتي كل شيء متأخرا كثيرا عن موعد تمنيه.

أصبحت غالية تكتب، تكتب ببراعة، ونجوى أكثر من يستفيد من هذه المقدرة في كتابة أوراقها الحقوقية التي رفعت اسمها إلى مصاف الناشطات المتميزات.

تكتب أجمل الكلمات وأعذبها عن الحب بكل شجاعة فلا أحد يعرف لمن هذه الكلمات أو ابنة من هذه، كان لديها متابعون تعرفهم في واقعها وكأنهم أشخاص آخرون.

تكتب عن أحداث البلد التي تسارعت عقب أحداث ثورة فبراير ثم راوحت أيام الحرب واستطالت كأنها لا تنتهي.

هل هناك أقسى من الحياة في بلد تنهكه الحرب وكل هذا الفقر؟!! وفي بيت تتناوشه المشاكل والنزاعات بعد أن توالت الكوارث على عائلتهم؟!!

إنما لو خيرت بين حياة أخرى في بلد آخر وبين الجلوس على صخور الوادي لمشاهدة غروب الشمس خلف الجبل، لن تختار

سوى الجلوس هناك والغناء في ذلك الفضاء المفتوح وكل جمهورها هو العشب والصخر والريح والشمس..وهي تغني..

"يا ليت والله وربي ما خلق لي روح إلا حجر صم وسط السائلة مطروح"

****

ربما جلساتها هي ونجوى هي أصدق ارتباط لها في واقعها الحقيقي بعد أن تهبط من تحليقها في عوالمها الافتراضية؛ نقاشاتهما معا حول هذا الأمر يصنع توازنًا بين خيالاتها وواقعها، حين تزورها نجوي كل بضعة أيام. أما خروج غالية من البيت فصار أمره محسوما بقناعتها وليس رفض الأهل فقط، في زيارة لها لاحظت غالية أن نجوى قصت شعرها فقالت لها باسمة:

-يناسبك كثيرا.

فردت نجوى بشرود:

- لا يهم أن يناسبني المهم أنه يريحني؛ تقص النساء شعورهن حين يبلغن ذروة اليأس ويعود لينمو كما تنمو الآمال في صدورهن، لم أعد أكيف مظهري بما يناسب أذواق الرجال، ولم أعد أهتم لو استثنيت من الأنوثة أبدا.

أتعرفين يا غالية ما مصيبة الفتيات في بيئتنا أو في عالم الإنترنت ؟ أن الفتاة حين يعجبها رجل تبدأ بإغوائه بطرق الحيوانات الغريزية؛ فكما تنفش الطيور ريشها، تخبره عن شعرها الطويل، وكما تستعرض الحيوانات أجسامها، تعرض الفتاة قطع

جسدها بالتدريج، ماذا لو حاولت استمالة من تحب بتفكيرها أو عقلها ؟! فهذا هو الفارق بين الحيوانات والبشر.

فترد غالية بهدوء:

-ذلك لأنها تعرف أن فطرة الرجل والمرأة لا تختلف في بدائيتها عن الحيوانات، وهذا هو القاسم المشترك بين البشر والحيوان، وبعد طقوس الصيد والإيقاع بالفريسة سيأتي دور العقل للندم أو الانتقاء الصحيح.

-يبدو أن العقل إذا استخدمه الرجل سيكون في غير صالح الفتاة؛ لأن الرجل سيختار غير تلك التي قدمت نفسها لأجله، ومن هنا نعود لنقطة البداية.. الرجل لن يستميله سوى تعقل الفتاة.

-ومن قال لك إن هذا تصرف عاقل، هذا اسمه تصرف نذل؛ لا تقدم الأنثى تنازلا كهذا إلا لرجل أحبته فعلا ؟

- هل يعني هذا أنك تشجعين الفتاة على طقوس الإغواء البدائية وتلومين الرجل لماذا لم يخترها ؟!!

ضحكت غالية من مشهد الاندهاش على وجه صديقتها وهي التي تعلم مدى تحفظها في كل شيء:

-لا ألوم الرجل على اختيار ما يناسبه في النهاية، ولا ألوم الفتاة على طرقها الغبية في التقرب لمن تريد، لأن هذا كما قلت لك غريزة في تكوين الذكر والأنثى، أنا فقط ألوم جمود الجنس البشري في هذه الجزئية فقط. يتغيرون في كل شيء إلا في احترام العقل واختيار الروح وسحرها وجمالها، تبهرهم المظاهر دائما، حتى مظاهر العفة والاحتشام.

ليس السفور والبهرجة والأصباغ والتجميل هي القشور وحدها التي تسقط بالزمن؛ كل المظاهر الخارجية تسقط في وقت ما، ما يهم هو احتشام العقل والقلب وحياؤهما فقط.

تطلق تنهيدة حالمة: ما أجمل أن تجدي ذلك الحبيب الذي لا يهتم بكل تلك المظاهر الزائلة ليهتم بروحك وعقلك فقط، حينها لا بأس لو نذرت هذه الروح والقلب من أجله حتى آخر العمر، وإن لم يلتقيا حقيقة.

فترد نجوى كأنما تنزعها من عالم الخيال إلى عالم الواقع:

- يحدث أن يحوي قلبك كل هذه العاطفة، وأن تمنحيها بسخاء لا ينضب، ثم لا تجدين قلبا يبادلك الحب بصدق، ثم تعيشين وحيدة دون حبيب أو طفل يتوسد ذراعيك حتى ينتهي العمر فيوسدك التراب.

هذا الحب الساذج قد انقرض زمانه؛ الواقع شيء والعالم الافتراضي شيء آخر. هناك الكثير من الفتيات على الإنترنت يعشن حياة افتراضية من وحي أحلامهن لا تمت لحياتهن الواقعية بصلة؛ البعض تعبث والبعض تحلم بفرصة لمزج الحياتين.

وأنت لن تجدي ذلك الرجل الذي يمنحك عاطفة روحية كعاطفتك، لن يكون هناك الكثير ممن يؤمن بالحب العذري إذا بعثنا هذه التسمية من القبر.

الرجال لهم نزوات عابرة يخفونها خلف كلماتهم المعسولة عن الروح والقلب.

بالنسبة لي لم يعد الذي في صدري قلبًا؛ لقد صار لي عقلان يعملان بكفاءة جيدة بعد أن تخلى قلبي عن نقطة ضعفه، وهي العاطفة.

فقالت لها غالية بعتاب حزين:

– بل يوجد هناك أنقياء القلوب أيضا، مع كل ظلام يوجد ضياء.. وأنا أثق أني سألتقي رجلاً أحبه وسيكون ناصعا كالشمس.

فتضحك نجوى قائلة قبل أن تسحب نفسا عميقا من الشيشة:

– سيأتي يوم، تلعنين نفسك كيف رأيتي هذا الجانب الكالح من الوجود شمسا.

– فليكن كيفما كان يا نجوي، أنا بحاجة ماسة أن أحب إنسانا ما كل هذا الحب، لا يهم أن أكون محبوبة، يهمني أن أحب كي أشعر بوجودي.

– لأنك خرقاء!! ينبغي أن تكتفي بنفسك وتحبيها فقط، ينبغي ألا تحتاجي لرجل، لقد تجاوزت هذا الغباء الفطري في النساء، لا أثق في شيء، ولا أصدق أحدًا، وأشك في كل أمر، أتذكر جيدا أنني لفترة ما لازمتني عبارة "ما أنت إلا بنت" هذا الاستثناء خنقني كثيرا؛ لم تكن الفتاة تستثنى كبنت إلا من حقوقها المشروعة لها كبنت.

لهذا أصر أن أكون رجلا بمنظورهم، لقد تعلمت، خرجت إلى سوق العمل، زاحمت الرجال وأوقفتهم في أماكنهم التي أريد، لم أشعر أحدًا بضعفي أو استثنائي كبنت.

لم أخسر فعليا إلا حين أحببت رجلًا!!!

ربتت غالية على كتف نجوي مواسية؛ تعلم أن حظها في الرجال كان سيئا، فالرجل الذي منحته قلبها باسم الحب لا يختلف عن طليقها الذي منحه الشرع جسدها باسم الزواج.

"كلهم خواء وحقراء" جملة ترددها في أسماع غالية وتختتم بها حديثهما كل مرة سواء كانت هناك مناسبة أم لا:

- كم أحسد الرجال لأنه يمكن لأية امرأة أن تثير شهيتهم، أن تشعل رغبتهم في أن يفكروا بها كشريك حتى في فراش، هذه الخاصية غير متوفرة في النساء أبدا.

وتعود نجوى لتلتقم أنبوب الشيشة وهي تنفث الدخان كما يفعل عمها الحاج سلطان تماما؛ مما يجعل غالية تبتسم رغما عنها وهي تسمعها تقول:

- الحق يا غالية أن أصعب اللحظات عليّ تلك التي أتجول فيها بين الناس بهيئة روحي، شتان بين هيئة الروح ومظاهرنا التي نبدو عليها.

أثق بهذا لأني أحيانا أتجول بابتسامة ساحرة ووجه فاتن وجسد رشيق كالغزال ثم أتفاجأ بمظهري على زجاج أحد المحلات لا يشبه ما أتخيل نفسي عليه أبدا.

ثم تطلق ضحكة رنانة وهي تلتقم أنبوب الشيشة وتقرقر به في شرود.

تتنهد غالية برضا من حكم عليه بالموت ثم استؤنف الحكم إلى سجن لمدى الحياة:

- لا بأس يا نجوى سيعوضك الله. تعرفين لقد مرت عليَّ أيام ظننت أني لن أنجو من توحشها وحزنها، ظننت أنها ستفتك بي وتستل روحي لا محالة، لكنني نجوت في النهاية وقد صرت أكثر تحملا وأقوى صبرا، نجوت لأني أثق أن الله يدخر لي سعادة ليس لمخلوق فيها يد حتى لا تعتصر عنقي بعدها.

لا أحمل من زواجي القصير الذي دام فعليا ثلاثة أشهر وصوريا ثلاث سنوات أية ذكرى تجعلني أبتسم لها.

تأملتها نجوى بشفقة حقيقية وهي تقول:

- لا أفهم كيف طاوع أمك قلبها حتى تقبل زيجتك هذه ؟!! ليس لأنك كنت صغيرة السن فقط، فقد قالوا في الأمثال "زوج بنت الثمان وعلي الضمان" إنما أين خبرتك في الحياة حينها وأنا أراها منعدمة لديك وأنت في هذا العمر الكبير؟!

ضحكت غالية لطريقة نجوي المحبوكة في توصيفها كغشيمة:

- يا صديقتي نحن بنات الريف نربى بطريقة نولد معها كبارا منذ الطفولة؛ أتذكر وأنا صغيرة حدثا أثر بي كثيرا، حضرت عرسا في إحدى القرى مع أمي ما زالت تفاصيله ماثلة في خيالي.

وسرحت بعينيها مسترسلة بحنين:

-أتذكر حجرة المنزل الضيقة بجدرانها الطينية المطلية بالنورة والتي شهدت مراسم وصول العروس، السقف المنخفض ورائحة البخور والشذاب والريحان، وصوت المغنية "منى علي" التي رافقت أعراس اليمنيين.

حين دخل العريس ممسكا بيد العروس الطفلة من باب الحجرة الضيق تزاحمها المهنئات والمتفرجات كانت مازالت ترتدي الشرشف الأسود فوق فستانها الأبيض الذي تبدو أطرافه تحت الشرشف؛ جلست بصعوبة على الهضبة من "المتاكئ" التي جهزتها أخوات العريس على هيئة كوشة.

وجلس العريس بجوارها يتفصد العرق من جبينه وعيناه تدور في محجريهما من الحرج ورهبة السواد في الحجرة.

كان أمامهما طاولة عليها صحن ممتلئ بالطين تنتصب فيه شموع تكاد تنطفئ لنقص الهواء الذي خنقته النساء، وعلى جانبي الصحن ورود و"شذاب" وأزاب وريحان وضعت بتنسيق في قصعتي سمن القمرية.

تقدمت أخت العريس وفكت أطواق الشرشف عن العروس وبقي "المغمق" مسدلا على وجهها حتى دخل والدها ليرفعه بكل اعتزاز وفخر.

ألقى العريس نظرة متعجلة على عروسه المرتجفة ولحق بوالدها لينهي مراسم وداع "الشواعة".

كانت العروس حينها ترتعش برهبة أمام نظرات نساء القرية الفاحصة، حتى أشفقت عليها أنا، وتوالت قريبات العريس بالسلام عليها ومعانقتها واحدة تلو الأخرى.

فجأة تقدمت فتاة يبدو أنها من القرية ومدت يدها بالسلام على العروس بمبلغ مالي كعادة منطقتهم حين تجابر النساء بعضهن في الأعراس مثل الرجال وليس في الولادات فقط كما هي منطقتنا.

أدهشتني كثيرا ردة فعل العروس التي نفضت الخجل والارتباك ونهضت ممسكة بيد الفتاة بقوة بيدها الأخرى وهي تشدد قبضتها على قبضة الفتاة لتعيد لها المال قائلة بفصاحة وصوت مرتفع رغم صغر سنها: أنا غريبة عن قريتكم ولا أعرف أحدًا ولا من أنت ولا أعرف طبيعة الرجل الذي تزوجته، وهل يرضى لي بحضور عرس في أي مكان، أو من يتقبل صلتهم من الناس، لن آخذ "مجابرات" من أحد فلا تحمليني دينًا فوق رقبتي.

هكذا هن فتيات الريف تربيتهن الصارمة أنجبت نساء صغيرات بعقول كبيرة.

****

-6-

أصر مختار أن يؤدي عمله كمدرس حتى بعد إقالته من عمله كمدير للمدرسة، والمجيء بمدير من قبل سلطة الحوثيين.

تطوع كمدرس شفقة منه بطلابه الذين يخسرون مظاهر التعليم عاما بعد عام، ومعلموهم يتركون التعليم من أجل طلب الرزق في أشغال أخرى، أما هو فقد كفلت له تجارة والده وإخوته معيشة لا تحتاج راتب المدرس الذي تلاشى كحق.

تحمل كثيرا المضايقات التي يتعمدها مدير المدرسة، تحمل الكثير من مشاهد الإذلال واللصوصية باسم المعلم والتعليم؛ لكنه ذلك اليوم فاض صبره وفقد تحمله؛ فأثناء مروره في طارود المدرسة تناهى إلى سمعه صوت همهمة بكاء مكتومة، استوقفه الصوت رغما عنه ليسمع زميله معلم الرياضيات يقول مترجيا مدير المدرسة:

-ساعدوني بأي مبلغ تقدرون عليه أو تحرير ورقة لصاحب البيت كي يخلي سبيل أثاثي ومطالبته لي بسداد مبلغ الإيجار المتأخر، وأن يعفو عني ما تراكم عليّ.

رد عليه المدير قائلا:

-ومن أين نتدبر لك مبلغًا كهذا؟! كل ما نقدر عليه هو وساطة أن يؤخرها عليك.. أما أن يعفو فهذا أمر صعب.

فقال المعلم متوسلا:

- يمكن للوساطة أن تقنعه بأمر السماح في المبلغ وإطلاق أثاث المنزل، أنت قلت لي إنك تعرف شخصيات في الأمن يمكنها ذلك.

فقال المدير بتبرم:

-أنت تسنّ لي سنة مزعجة، غدا كل معلم يأتي إلي كي أجد له حلاً في مشاكل سكنه، اكتم الخبر وسوف أفعل ما بوسعي لما بيننا من عشرة عمر في هذه المدرسة وزمالة وصداقة.

فقال المعلم مستبشرا:

-سأفعل؛ لن أخبر أحدا بخدمة العمر هذه.

تحرك مدير المدرسة من وقفته وقال بضيق:

- وماذا ستفعل بعدها ؟

قلب المعلم يديه بحيرة قائلا:

- سأعود بزوجتي وأولادي إلى القرية؛ لم يعد ممكنا العيش هنا مطلقا.

فرد المدير بغضب:

- ومهنتك ؟ عملك هنا كمدرس رياضيات من سيقوم به ؟

قال المعلم بقلق:

- أحضروا بديلا عني ليقوم بالتدريس أسوة بالكثير من المعلمين الذين تركوا عملهم.

فصرخ المدير وهو يدس كفه في جيبه:

- ومن يدفع راتبه ؟ هاا من يدفع ؟ عليك تدبر مبلغ لا يقل عن نصف راتبك لتدفعه أنت للبديل.

ضحك المعلم بغبن قائلا:

- وأين راتبي هذا ؟ ومن يدفع لي أصلا كي أدفع أنا للبديل ؟ وهل تركت عملي وبيتي وحياتي إلا لأني لا أجد هذا الراتب.

رد عليه المدير:

- هذه ليست مسئولية إدارة المدرسة، كل معلم ينبغي أن يحضر بديلا ويدفع له، كأنك لا تعرف هذا ؟!!

- نعم أعرف هذا.. وأعرف أن الكثير يأتي ببديل من خريجي الثانوية لا يفقه كيف يكتب اسمه فكيف سيدرس التلاميذ.

أعرف أنه لم يعد هناك تعليم أساسا وأن المعلمين يلجؤون إلى المدارس الخاصة لأنها تدفع مبالغ زهيدة بخلاف المدارس الحكومية التي لا تدفع حتى مبالغ السحت التي تنهب من التلاميذ.

أعرف أن هذه المبالغ تذهب إلى جيوب معينة وأن المعلم لا يحصل إلا على الفتات.

حتى معونات المنظمات الخيرية لا تصل لهذا المعلم!!

أنا أطالبك أنت كمدير للمدرسة أن تدفع حصتي للبديل عني.

صرخ المدير في وجهه قائلا:

- طلباتك لا تنتهي يا أستاذ وأنا مثلك عبدٌ مأمور لا أملك لك شيئًا وقانون المدرسة واضح، عليك أن تلتزم بعملك أو تدفع للمعلم البديل وانتهينا.

خرج المدير من أمام مختار وصفق الباب بعنف.

لم يستطع مختار إلا أن يدخل لمواساة زميله المنهار على الكرسي وعيناه مغرقة بالدموع.

رفع رأسه وهو يقول بأسى:

-لم نكن نتخيل أن يصل الحال بالمعلم إلى هذه الدرجة من الهوان والعجز يا أستاذ مختار؛ لم نعد نتلقى مرتبات من الدولة بل صرنا مطالبين بدفع مرتبات لها.

لم نعد مطالبين بتعليم التلاميذ بل بتجهيلهم، لم نعد قادرين أن نعيش بل أن نموت أسوأ ميتة.

يومها عاد مختار إلى منزله وقد قرر ترك مهنة التدريس بعد كل هذا العمر؛ لم يعد يتحمل ما يشاهده من قهر كل يوم.

****

عقب عودة الحاج "قائد" من عمله للغداء أخبرته زوجته عن ترك ابنها "مختار" النهائي للمدرسة وتأثره الكبير حول الأمر.

فيما طالعه وجه فتحية المنهك الذي زادته الحيرة تعبا؛ في مثل هذه المواقف لا تعرف فتحية سوى الصمت ومشاطرة مختار مشاعره مع عجزها عن المواساة بالكلام.

وبدلا من قيلولة الظهيرة التي اعتادها، دلف الحاج "قائد" حجرة المكتبة التي يأوي إليها ولده هذا الوقت من النهار، وجده على خلاف عادته في القراءة منهمكا في إنزال الكتب من رفوفها حتى امتلأت أرضية الحجرة محدثا فوضى في أرجائها.

فحدث نفسه بأسف: هذا أول الخير!! اقترب من ولده ويده تتخلل ذقنه الأشيب الكثيف وجلس على طرف المُتكئ. قائلا:

- أخبرتني أمك حول قرارك ترك المدرسة، نحن نواجه كل يوم مواقف تدمي القلب يا ولدي؛ كرامة الناس استباحها الفقر، وأذلتهم الحاجة.

ما رأيك يا ولدي؟ أعرف أن التدريس والدراسة يمثلان جانبًا كبيرًا من حياتك، واختفاؤهما سيشعرك بفراغ هائل؛ لذا أعيد عليك عرض الأمر للمرة الثانية كما عرضته يوم إقالتك من إدارة المدرسة.

لقد آن الأوان أن يكون لك مشروعك الخاص مثل أخويك، ولا أظن أن هناك أفضل من مشروع مدرسة خاصة كون التعليم هو الجانب الذي تبدع وتجد نفسك فيه فما رأيك يا ولدي -حقا تجارتنا تأثرت كثيرا بسبب أوضاع البلد منذ الانقلاب لكن المدرسة ستكون علمًا وعملًا أيضا..

تأمل مختار والده مطولا!! كان لطول أبيه الفارع وعرض كتفيه مهابة كبيرة في النفوس، وضع مختار الكتاب الذي بيده قبل أن يجثو على إحدى ركبتيه أمام والده قائلا بصبر:

- أبي أنت تعلم ردي مسبقا؛ أنا ضد التعليم الخاص والمدارس الخاصة وما تفرزه من طبقية مقيتة. كما لا أحترم فكرة التجارة بالعلم أبدا؛ المدارس ينبغي أن تكون تابعة للدولة ومجانية ومتساوية حتى فيما يرتديه التلاميذ، والأهم من هذا أني لن أدير مدرسة ستفرض فيها سلطة الحوثيين تعليم القيم التي يريدون ونحن مرغمون على ذلك... وفوق ذلك ينتزعون جباية مضاعفة رغم أنوفنا.

للأسف هذا ما يريدونه بأفعالهم هذه؛ لقد اشتهر الإنسان اليمني بضياع وقته في تناول القات لساعات طويلة منذ القدم بسبب حكم الأئمة المتعاقب على هذا البلد؛ حين يفرضون جبايات هائلة على كل مشروع عمل أو تجارة أو حتى بسطة على الرصيف؛ يقاسمون الناس أرزاقهم بأكثر من سبب، زكاة: وجبايات ضرائب، وأخيرا مجهود حربي وإقامة الموالد وأعياد البدع ومسببات لا تنتهي من جعبتهم، لذا ترك اليمنيون العمل وركنوا للجلوس في بيوتهم يمضغون فقرهم وجهلهم.

ثم أنك لا تعرف ولدك بما يكفي يا أبي؛ حقا التعليم شغل جانبا هائلا من حياتي لكنه ليس كل شيء؛ سعيد أني سأتفرغ للقراءة والكتابة ثم أن مساعدتك هي الأهم، أنت تقف وحدك في المحل بما أنك أفردت لأخوي أعمالهما الخاصة، سأكون مساعدك وقربك، مثلما أنا في البيت قربك.

أفكر أيضا بالعودة إلى الزراعة. وتبتسم ضاحكا وهو يطالع الدهشة في ملامح والده مستطردا:

– إذا قبل عمي سلطان بالطبع؛ لدينا أراضٍ كثيرة أصبحت بورًا، لو زرعناها بأشجار البن عوضا عن أشجار القات التي بدأت تغزو مدرجات الجبال؛ نزرعها بنًا لتصبح معمرة مثل شجرة التين العتيقة التي في الوادي، حلم زراعة شجرة البن على سفوح بعدان يراودني منذ زمن طويل.

لكن لا تقلق، ما زال مشروعا في رأسي يا أبي فلا تظن أنها بداية نوبة جنون الفراغ؛ لا أعاني فراغا أبدا ما دمت أحمل مسئولية وهمومًا كبيرة.

نهض ضاحكا وهو يحاول قطع طريق الصغير بهاء الذي تسلل من باب الديوان صوب أحضان جده الذي احتضنه بشغف قبل أن يسأله:

- وأنت يا بهاء هل ستبقى مع جدك أم تذهب مع أبيك لزراعة البن في القرى والجبال ؟

تحمس الصغير قائلا بصوت فصيح:

- سأذهب مع أبي يا جدو؛ حتى نزرع البن لتفرح عمتي غالية؛ أنا أحب القرية وأحب أبي والزراعة وأنت.

ضحك مختار والتقطه من حجر جده قائلا بمرح:

- تجري إلى حضن جدك هكذا دون أن تطلب مني شيئا ؟

صفق الصغير بهاء رافعا ذراعيه صارخا:

- نعم..نعم طلعني السماء يا بابا

رفعه مختار عاليا فيها جده يصيح به منبها:

- توقف عن رفع الولد بهذه الطريقة يا مختار كم أخشى أن يفلت من بين يديك أرضا.

فرد عليه مختار:

- هل كنت لأسقط من بين يديك حين كنت ترفعني عاليا يا أبي وأنا صغير ؟!

أنا أيضا لن أترك بهاء يسقط مني أرضا أبدا.

-7-

التفت عمر إلى صوت السيارة خلفه ليطالع جارهم طاهر الرضي يترجل منها بكامل أناقة الزي الخاص بعائلات الزيود؛ التوزة والدجلة والقاوق، وجدها فرصة لتحيته عله يتذكر الوعد القديم، فهتف باشًا:

- صباح الخير يا عم طاهر.

رفع طاهر الرضي بروز حاجبيه مستنكرا:

- طاهر!!!! هكذا عمي طاهر بلا تقدير ولا تبجيل هكذا علمك أبوك معلم المدرسة المثقف ؟!!!. وانصرف يهمهم في سخط وقد جمع حاجبيه الأجدبين وخلفه يجري مرافقوه المسلحون.

تابعه عمر بنظراته التي لم تحمل أية دهشة؛ فقد تأكد له ما كان يشعر به فعلا بعد كل ما يحدث مؤخرا... لم يعد هناك أي أمل في وصال فاتن ولن تكون بينهما أية حياة مشتركة.

حين دخل عمر المنزل توجه إلى مجلس جده قائد وهو مطأطئ الرأس على وجهه شرود أفسد سحنته المنبسطة، كان يحمل تقاسيم أبيه الوسيمة وطباعه اللينة المتخففة من كل شيء.

سلم على جده وجلس قربه وما زال الشرود مسيطرا عليه فسأله جده وقد لاحظ غياب بشاشته:

- ما بك يا عمر ؟

– جارنا عمي طاهر الرضي غضب ونهرني كيف أناديه بعمي طاهر ؟!!

– طاهر الرضي أعماه الطمع والسلطة يا ولدي هو يعتقد أن لا سبيل لهما سوى بتمييز نفسه عن بقية الناس وأنه أحق بهذا التمييز من غيره.

– لا أفهم كيف تحمل أبي مختار صداقة وزمالة هذا الرجل كل عمريهما، لولا ابنته ما أطقت النظر إلى وجهه، ألم تجد مكانا أفضل من السكن جوار عائلة الرضي يا جدي ؟

– لقد سكنا في أرضنا يا ولدي؛ أرض أجدادك الأوائل؛ تصاريف القدر فقط هي من جعلت عائلة الرضي تسكن جوارنا وتبيعنا أرضنا.

فرك الحاج قائد لحيته الكثيفة وهو يعود بأفكاره إلى الأيام الأولى لسكنه المدينة:

– في تلك الأيام كنا نظن أننا تجاوزنا كل مشاكلنا وحروبنا وأن القلوب لملمت جراحها، لقد مرت علينا أيام بعد سكننا في المدينة لم يكن أحد ليبسط على أرض أحد، كانت السعة في القلوب، إب مدينة صغيرة مساحاتها الزراعية أكبر من مساحاتها السكانية، والمنازل لا ترتفع إلى طوابق كثيرة، وغالبية المنازل فيها بساتين وحدائق صغيرة، تزرع الأمهات المشاقر والبسباس جنبا إلى جنب، حتى عندما تتفرق البيوت بزقاق المترين عندما يهب كل جار من أرضه مترا كممر وغالبا تجتمع الأحواش بسور واحد،

أصبح الزمن مختلفا الآن؛ عاد الوجه الكالح يغلف وجوه الناس؛ تغيرت القلوب والأرض ذات الأرض.

كل شيء ارتفع ثمنه إلا حياة الناس وكرامتهم؛ صار الأخ يأكل أخاه من باب "الأقربون أولى بالمعروف". حتى أوراق النقد تغيرت صارت أقل قيمة رغم كبر الرقم.

"على أيامنا يا عمر يا ولدي كنت أحصل بالمائة ريال على زوجة؛ حين تزوجت جدتك أمهرتها مائة ريال، وحتى والدك زوجته بمائة وخمسون ألف ريال، الآن قل لي هل تكفي زيجتك؟ مليونا ريال أم خمسة ؟!! أم أن الملعون طاهر الرضي كان سيطلب لابنته أضعافها ؟

هذه السلالة لا تزوج بناتها لأبناء قبائل اليمنيين منذ زمن؛ وزواجك من فاتن ما زال مرفوضا من قبل الشريفة وأهلها، حتى الرضي نفسه بدأ يتراجع ويضع أعذارا.

وصدق المثل " الخبز من ذاك العجين" مسكينة زوجة الرضي لا حول لها ولا قوة بينهم.

إنهم يرون أنفسهم سادة يا ولدي وعرقًا مختلفًا؛ منذ قدموا إلى بلاد اليمن ولهم شأن آخر فرضوه على الناس فرضا؛ أحيانا بخرافات الدين وأحيانا بحد السيف، حكموا البلاد كحق لهم وليس كحكام أرادهم الناس؛ الإمامة حق إلهي في نظرهم، وأنت جدك حارب عسكر الإمام بالفأس على "جربة" بور عجز عن زراعتها بسبب الجبايات التي كانوا يفرضونها على الرعية.

عندما قاتل جدك وكثير من اليمنيين من أبناء المناطق الوسطى في صفوف الأتراك بكل رضا، ومات المئات من اليمنيين والأتراك جنبا إلى جنب في قتال الأئمة الزيود، وهم يحاولون إخضاع المناطق الوسطى لسلطتهم؛ إنه ماض محشو بالحروب والضغائن؛ وهكذا هم اليمنيون منذ القدم يفرحون بغازٍ ضد غازٍ آخر أشد سوءًا، هذا إذا افترضنا أن العثمانيين كانوا غزاة.

– نعم كانوا غزاة؛ كل الدول التي حاولت فرض وصايتها على اليمن غازية تطمع في موقع اليمن أو ثرواته، ولم يكونوا لينجحوا في ذلك لولا أبناء اليمن أنفسهم.

تنهد الحاج قائد وقلبه يطرب لهذا الجيل الذي تظهر يقظته في وعيه لما يدور حوله:

– ربما أنت على حق يا عمر، لكنك لو لاحظت في كل تاريخ اليمن كنا نستنجد بآخرين للقضاء على محتل أشد سوءًا؛ واليمنيون كانوا يكرهون ظلم الأئمة وأحقادهم وحروبهم على السلطة فيما بينهم، يكرهون طبقيتهم وحرصهم على تحقير اليمنيين وتطويقهم بالفقر والجهل كي يظلوا خاضعين لسلطتهم؛ لم يكن الفقر هو سبب تخلف اليمن بل سياسة الأئمة وأفعالهم التي عايشتها طفلا ويافعا.

لقد صنعوا هذا الفقر بأيديهم وسياسة حكمهم.

الفقر لم يكن السبب حتى في تلك المظاهر المنفرة للإنسان اليمني يا ولدي، بل الفكر الذي أراد الأئمة أن يسود بين الناس، زمان أدخلوا في روع الناس أن النظافة والاهتمام بالمظهر شيء خاص بالنساء ومن مظاهر قلة الرجولة، وكانت الشمة وهي من

أقذر العادات من مظاهر الرجل الصلب، والتعليم ليس ضروريا كحمل السلاح؛ والرجل القوي من انتزع لقمته من الأضعف.

صارت هذه المظاهر عادات خاصة بالقبيلة لتتوارى نخوة وشهامة القبيلة خلف عادات أخرى قبيحة، أما السادة فحرصوا أن يكونوا في حال أرقى، وهذا هو التمييز الذي سعوا إليه منذ دخولهم اليمن.

لقد كان اليهود في اليمن خيرا من حكامها الأئمة؛ أتذكر حديث أبي عن التاجر اليهودي "داوود الصبيري" الذي تكفل بتكفين المسلمين الذين تساقطوا في مجاعة (1943) والتي حدثت قبل ولادتي بفترة وجيزة.

كان حينها سيف الإسلام الحسن مثل والده في بخله وجشعه وقلة مروءته، فقد ضربت المجاعة جهات واسعة من اليمن ومنها مدينة إب، وكان واليها لسوء الحظ، نزح سكان البوادي الى مدينة إب مئات وألوفًا جائعين لا يجدون ما يبقي على حياتهم، مات الآلاف أمام سمع وبصر الإمام ولم يحرك ساكنا كأنه ليس ولي الأمر إلا للجباية والنهب، فيما خزائن الدولة تمتلئ بأصناف الحبوب، كان القادرون من أهل إب يبذلون جهدهم لإطعام النازحين، ويعجزون عن تكفين كل الموتى لكثرتهم، فتطوع تاجر يهودي اسمه داوود الصبيري وبذل أمتار القماش الخاص بالتكفين، حتى وجد الإمام من يقول له إن اليهودي فعل ما كان ينبغي على الوالي فعله.

فاشترط ابن الإمام ألا يصرف الكفن إلا لمن ثبت أنه كان مواظبا على تأدية الصلوات الخمس. هل رأيت أقبح من هذا الكلام يا ولدي ؟!!

هم هكذا منذ القدم يتسترون خلف الدين كأوصياء عليه وهم يستبيحون الدماء والأرواح وأموال الناس والأعراف والتقاليد اليمنية الأصيلة.

وقبل أن يستزيد عمر كعادته من أحاديث جده هتف به الحاج قائد:

– الجمعة ستفوتنا يا عمر، انظر أباك أين هو وأعمامك وناد جدتك أين "صبوح الجمعة"، هل انتصر عليها تكاسل المدينة أخيرا.

نهض عمر تملأه الحماسة؛ فقد أنساه كدر رؤية طاهر الرضي مراسم الجمعة التي يعشق جده إحياءها بذلك الطابع الجميل الذي اعتاد عليه؛ إفطار الجمعة يجب أن يكون أقراص "الملوح" الساخن بالسمنة والعسل البلدي، أو قرص السبايا إن لم يكونا معا.

الجمعة أشبه بعيد صغير في بيتهم كما جرت العادة منذ القدم فالأمهات تغسلن الصغار وتلبسنهم ملابس الجمعة الجديدة والملونة، وعادة يكون الثوب والعسيب "الجنبية" لبس الكبار والصغار من الذكور، لا يزال جده يرتدي المقطب المبقص الأبيض الناصع وعمامته البيضاء التي يلفها بعناية ولم يسبق له أن خرج حاسر الرأس يوما من البيت، يضع أغصان الريحان التي تقطفها جدته من مشاقر الريحان والشذاب والأوزاب التي وضعتها في سقف البيت الكبير وتوليها كل عنايتها وتوزع منها

للجارات عند الولادة والمناسبات، فيما تفوح رائحة البخور العدني من موقد المبخرة الصغيرة التي تتوسط الحجرة في صحن نحاسي كبير تزينه النقوش المحفورة يدويا.

ما هي إلا دقائق حتى تحلق الأبناء والأحفاد حول مائدة الإفطار وقد أتى جميل وفاضل وأولادهما بالسبايا وبرادات الشاي لكي تجتمع العائلة كطقس أسبوعي كل جمعة، ويدخل الصغير بهاء يتهادى في مشيته الخجولة ليتربع في حضن جده أمام نظراتهم الضاحكة فهو الوحيد بين الأحفاد الذي يجرؤ على الجلوس في حضن الحاج قائد وقت تناول الأكل.

وحين تحاول فتحية حمله بعيدا يمنعها الجد قائلا بحبور مطيبا خاطر بقية أحفاده التي تظهر غيرتهم في نظراتهم:

– اتركيه يا فتحية، هذا البهاء الإبي، أصغر فرد في العائلة وسلا قلب جده العجوز، حين يكبر سيجلس في طرف المائدة بعد الكبار الذين سبقوه في الدلال.

****

-8-

في أوائل فبراير 2011 خرج شباب الجامعات والأحزاب والبسطاء في ثورة تغيير مشابهة للثورات التي انفجرت في بعض الدول بما يسمى ثورات الربيع العربي.

كان عمر في السنة الأخيرة من الثانوية العامة، منعه جده من المشاركة في المظاهرات وقصر اهتمامه على المذاكرة، لكن عمر جاء بالحيلة على والده المعلم القدير حين أخبره عن حماسة المذاكرة في خيام الاحتجاج وكمية المساعدة من زملاء ومعلمين كبار يوجدون في خيام الثورة.

وأبدى حزنه على صديقه وجاره طاهر الذي حرم هذه الفرصة للمذاكرة.

حتى إن مختار بنفسه أخذته الحماسة للمساعدة وانخرط في إلقاء الدروس لمجموعات الطلبة الراغبين في اللغة والأدب.

لكن عندما سقط شهداء في المظاهرات أصدر الحاج قائد قراره بمنع عمر من الذهاب إلى "خليج سرت" حيث مخيم الثوار وكان قرار الجد لا رجعة فيه.

فكف مختار عن الذهاب وإن ظل عمر يتردد إلى هناك خلسة من جده.

لم تكن ثورة الشباب السلمية سوى ثقب في الجدار وبدلا من شعاع النور المتوقع للإصلاحات تسللت منه فوضى أشد من فوضى الفساد؛ كانت فوضى الخلافات المسلحة.

فخلال خمس سنوات فقط كان الانقلاب على الدولة وخطفها من قبل جماعات الحوثيين المسلحة، ودخلت البلاد مجهول الحرب والخراب بتدخل قوات التحالف ليصبح الناس هم ضحايا الفقر والمرض والجهل، ثلاثي الرعب الذي يطارد اليمنيين منذ القدم.

تغير حال أسرة قائد الإبي الذي تأثرت تجارته ووضعه المادي بسبب الحرب وارتفاع الأسعار واستحداث قوانين تنهب التجار والشعب بأكمله ضرائب وإتاوات.

انقطعت الكهرباء ومرتبات الموظفين وشحت المياه وصار الوضع عسيرا على الجميع.

إلا بيت الرضي!!!

أصبح طاهر الرضي هو المشرف من قبل حكومة صنعاء على المنطقة بأسرها، وازداد ثراءً وغنى، وكلما تحصل مالًا تفتحت شهيته أكثر لأساليب أخرى لتحصيله.

كانت مهمته حشد المقاتلين من أبناء الرعية والفقراء إلى جبهات القتال ضد شرعية البلاد المنتخبة ودول التحالف، حتى أنه ألحق أخويه بها، ولم يهتز له جفن حين أتاه خبر مقتلهما في جبهتي تعز ونهم.

كانت الضربة الموجعة في كبد الرضي والده وهو يدفن ولديه واحدا بعد الآخر؛ لقد هده مقتل ولديه وعزف عن كل شيء بعدهما؛ لم تخفف وجعه الجنازتان العظيمتان اللتان خرجتا من بيته ملفوفة بالأعلام الخضراء وزغاريد الشريفة وصويحباتها ولقب ولي الله الشهيد الذي كتب بخط كبير على لوحات خضراء تحمل وجه كلا الشابين اللذين طبعت صورهما قبل التوجه إلى الجبهة كخطوة احترازية قبل مقتلهما كما يصنع مع كل المقاتلين سلفا.

حتى يأتي الحين التي تزين فيه شوارع المدينة ومتاحفها صور قتلى الحرب.

عاد طاهر الرضي بعد دفن أخويه يستولي على تلك الأراضي التي باعها أبوه يوما مدعيا أحقيتها لأسرته، لم يترك حتى أراضي الوقف والمقابر بسط عليها وتاجر بها أيضا.

كانت عينه على مساحات الأرض التي باعها والده لجارهم قائد الإبي فقد كانت أفضل مناطق الثجة وأصبح بيت الرضي جزءًا صغيرًا في طرفها؛ لذا ألمح مرارا لمختار أنها أرض وقف وفي بيعها نظر، لقد اعجزته الحيلة كيف يطرد عائلتهم الكبيرة منها أو يحتال عليهم فيسلبها كحق لعائلته.

يكرر في المقايل والمحافل أنها أرضهم في الأصل وهي وقف لهم ولا يجوز بيع الوقف ويجب أن تعود إلى أصحابها الأصليين فيرد عليه قائد الإبي: الجميع يعلم من هم أصحابها الأصليون قبل أن تأتي أنت وأبوك وجدك.

وبعد أن كانت علاقة الأسرتين في طريقها لتكون عائلة بالنسب نشبت بينهما معارك إثبات الحق.

في مجلس السيد الرضي الأب اجتمع الأعيان في محاولة لرأب الصدع، صرخ الحاج قائد الإبي في وجه طاهر وهو يتيقن بنوايا طاهر الرضي:

- إذا كنت غير مقتنع أن الأرض التي اشتريتها بمالي من أبيك هي أرض حرّ وملكي فلتعلم أن الإمام اقتطعها لأجدادك من أراضي جدي وهي أرضنا نحن، وما زالت صكوك الأرض معي تتوارثها أجيالنا جيلًا بعد جيل وما دفعت لأبيك ثمنها إلا من باب الود وكرم الأخلاق مني وبدء صفحة جديدة لا تحمل أحقاد الأولين، وستسيل الدماء إلى الركب لو فكرت بمنازعتنا أو الاعتماد على سلالتك لنهبها كعادتكم.

****

كان الحاج قائد قد انصرف غاضبا من مجلس السيد الرضي بعد تلميحات ولده طاهر حول الأرض التي تمتلكها عائلة قائد الإبي بصكين بدلا من صك واحد، لم يحاول يوما إثارة الماضي بينه وبين عائلة الرضي وفضل الجوار والمعاملة الحسنة ما داموا في مدينة واحدة وجارين منذ سنوات طويلة.

لم يكن يتحدث بين الناس أن هذه المساحات من أرض الثجة كانت لأجداده منذ عقود، وعائلة الرضي دخيلة على كل شبر فيها، لكنه آثر الجوار، فالأرض كلها لله يوَّرثها من يشاء من عباده، والكل يعلم من هم عائلة الإبي. لكنه صار يكرر الآن بحنق وقهر:

- هذا آخر الكرم والقبيلة التي ساقتنا إلى أن نثبت حقنا في أرضنا.

لحق به صديقه الحاج "يعقوب" أحد تجار وأعيان المدينة قبل أن يدلف حوش منزله الكبير صائحا به: تمهل يا حاج قائد: تمهل.

التفت قائد إليه وعلامات العبوس تغطي وجهه، فيما أمسك صديقه برأس الجنبية التي يتحزم بها قائد كأنما يناشده القبيلة:

- يا حاج قائد السيد طاهر بن الرضي لا يستحق كل هذا الغضب كلنا نعرف أن الأرض أرضك وهذا الرجل في عمر ابنك مختار وصديقه قد أسكرته نشوة السلطة التي منحت له، أما والده السيد الرضي فلا يستحق إلا كل تقدير واحترام ولا تنس أنه من بيت خير وبركة، لا تنس أن والده كان بركة قريتنا والمنطقة كلها.

ويقضي في حوائج الناس لا يرد أحدًا عن مجلسه. ما كان ينبغي أن تخرج هكذا غاضبًا وما تعمل حسابًا للوجوه المجتمعة.

فرد الحاج قائد بحنق وقد طفح الكيل:

- إذا أنت مصدق أن بيت الرضي بركة على الناس وفيهم الخير أنت واهم يا رجل؛ هؤلاء سلبوا ما في أيدي الناس لكن بطريقة الحيلة والدجل والشعوذة، الله ما رفع أناسًا عن أناس إلا بالتقوى والعمل الصالح وعمل هؤلاء الناس خسيس.

استغلوا جهل الناس بالشعوذة والحروز وأباطيل الكرامات؟

جدودهم أشبعوا الرعية خرافات ودجلًا وأرهبوهم بالجن والإنس كي يلجأوا إليهم.

بركة قريتكم هذا، كان يبني ديوان منزله بصورة تفضح تعاليه عليكم؛ الدكة في رأس المجلس أعلى من بقيته، هذه الدكة لا يجلس عليها سوى أبناء هذه السلالة. سيدك هذا يأمر أي قبيلي يمني بالقيام من مكانه لو صادف وجلس في الدكة العليا ليفسح مكانا لأحد السادة إذا وصل متأخرا بحجة أنه من هذه السلالة ولا يتقدمه أحد ولو بالجلوس في مكان أعلى من مكانه؛ هذه العنصرية قتلت الناس وحقرتهم واستحلت كرامتهم على مر القرون وأنت عارف بهذا لكنك تداهن يا حاج يعقوب.

بركتكم هذا لم يكن يرد أحدًا من مجلسه إلا وقد قدم إليه بخير أرضه من بن وسمن وحبوب!! من أين لهم الخير الذي يبذلونه إلا من ظهور الرعية، وأي بركة هذه وقد نزعت بركة تجارتنا من كثرة الجبايات والضرائب بمسميات لا تنتهي!!

لو استطاعوا بيع الهواء لنا لفعلوا!!

****

-9-

- كيف حالك يا مختار ؟

أتى صوت نديم صديق مختار عبر الهاتف فانتعشت حواس مختار لذكريات كثيرة.

- أهلا ومرحبا، الحمدلله، كيف حالك أنت، أين أيامك لم أرك من مدة يا رجل.

- لهذا اتصلت بك، بما أن سالم هنا في المدينة لنجتمع ونخزن في ديوانكم مساء الغد ما رأيك ؟

- هل سالم ابن عمي هنا ؟!! أطلق مختار تساؤله بدهشه لم يستطع تداركها.

- نعم منذ الأمس، قابلته في سوق الجملة، ظننته عندكم كالعادة!!

- طيب؛ غدا نلتقي للغداء والمقيل في بيتنا.. أنتظرك ومن معك من الأصحاب.

أغلق مختار الهاتف لتنفتح وساوسه التي تتفاقم بمرور الوقت، لماذا لم يصل سالم كعادته إلى بيت عمه، وكم من المرات قدم إلى المدينة دون أن يعلم هو هكذا بمحض الصدفة، يعرف أن سالم يحتاج إلى البضاعة من أجل دكانه، لكن تجار الجملة موجودون في مركز القرية أيضا. "لماذا لم تمر علينا يا سالم" ؟!!

جال بخاطره مشهد سيارة القرية كما يسميها الصغار في العائلة حين كانت تأتي محملة بركابها القادمين إلى المدينة؛ تصل

دائما إلى بيت الحاج قائد قبل أن يذهب كل من فيها إلى شئونهم التي قدموا من أجلها، ثم يعودون للغداء في بيت الحاج قائد، البعض يقضي أياما في ضيافتهم حتى تأتي سيارة القرية مرة أخرى.

كان الصغار من أحفاد الحاج قائد يتقافزون إلى داخل السيارة على أمل أن يسمح لهم بالذهاب إلى القرية مع أبناء عمومتهم، وكثيرا ما يتفقون على عمل قرعة ليذهب اثنان فقط.

تنهد بعمق وكأن جدارا ينقض في روحه لينهض بينه وبين رفيق طفولته وقريبه.

سأله عمر الجالس إلى جواره في حوش المنزل يشربان الشاي مستمتعين بجو العصر الهادئ بين أشجار البن التي تعتني بها غالية، وأحواض الورد تجاورها أحواض النعناع والكزبرة؛ كان البستان الكبير حديقة متكاملة تزرع فيه نساء البيت ما يرغبن بحسب أمزجتهن ما عدا الأم الكبيرة التي اكتفت بأحواض المشاقر في سطح المنزل. عمّ الهدوء المكان إلا من حفيف الأوراق وحركة غالية جوارهما؛ فأغلب الناس قد لجأوا إلى مقايل القات:

- ماذا بك يا أبي ؟!! هل سمعت شيئا ضايقك في المكالمة ؟

- سالم أبن عمي هنا منذ الأمس ولم يأت للمبيت في بيت عمه ؟ هناك شيء لا أفهمه يجعل سالم متغيرا في معاملته!!

همس عمر وهو يطالع عمته غالية وهي تحاول التقاط حبات البنّ من الأغصان المرتفعة للشجرة؛ فهذه تسليتها في مثل هذا الوقت:

- لا تلقِ بالاً لكل شيء يا أبي؛ أنت تنهك أعصابك في الجري وراء مشاكل العائلة كلها بنسائها ورجالها؛ حتى مشاكل عمل أخويك ترهق بها أعصابك أنت.

لعل عمي سالم وجد مكانا آخر يقدمون فيه طعاما أفضل. وضحك بسخرية وهو يتخيل العم سالم ببطنه المستديرة التي تحصلها من غربته في المملكة.

نهره والده بجفاء قائلا:

- لا تتحدث هكذا عن عمك سالم هو في مقام أبيك ومن مقام جدك، لا تجعل خفة هذا الزمن في التعامل تنسيك أعرافنا في التعامل فيما بيننا ووجوب الاحترام.

والمثل يقول "الكلمة الحالية تكسر العود اليابس".

- أعتذر لك يا أبي، أحببت فقط أن أخفف عنك، رغم أن كلامي حقيقة فعمي سالم دائما يبحث عن مصلحته في أي مكان ولا يراعي أحدًا، هذا وهو أفضل أبناء عمي أتساءل كيف سيكون حالك لو سمعت كلام ناصر في غيابك أنت أو جدي، وضحك بسخرية رافعا صوته كي تسمعه "غالية"؛

- ناصر ابن عمي لن يغفر لنا ما فعلناه به مطلقا.

رمقه والده بنظرة عتاب وهو يرفع الهاتف متصلا بسالم، لم يسأله عن شيء ولم يعاتبه بل قال له بانشراح:

- كيف حالك يا ابن عمي، نحن ننتظرك على العشاء فلا تتأخر.

ولم يعقب سالم على دعوة ابن عمه.

اقتربت غالية منهما تريهما الطبق المملوء بحبات البن داكنة الحمرة قائلة بافتتان:

– انظرا، هل يوجد أجمل من حبات البن أو أطوار نموها ؟!! انظر يا مختار كم هذه الحمرة داكنة براقة كأنها تشربت دماء هذا الوطن؟!!

غطى عمر عينيه بيديه وهو يدعي الرعب صارخا وضحكاته تغلب صراخه:

– أرجوكِ يا عمتي!! ما هذا التصور المخيف ؟!! لن أشرب القهوة بسلام بعد اليوم.

كانت ضحكاته تخفت وهو يبتعد هاربا من غضبها الذي بدا حين انتزعت غصنا أخضر من أقرب شجرة وهي تصيح به:

– اذهب يا ولد فثلاثة أرباع طولك لسان، لا أدري لِمَ لم ترث رصانة أمك ولا هدوء أبيك.

هدأ مختار من غضبها ضاحكا وهو يرد اللوم على هذا الجيل الذي يأخذ كل الأمور دون جدية، ونهض فاتحا ذراعيه للصغير بهاء الذي أقبل مع والدته قائلا لغالية:

– دعيه يا غالية، دعيه يمرح ويملأ الدنيا صخبا، أشعر أن جيل عمر سيتعب كثيرا لما ينتظره في مقتبل الأيام، جيلنا لم يحافظ على مكتسب جيل آبائنا، وللأسف أبناؤنا سيدفعون الثمن.

قال عبارته وهو يرفع بهاء الصغير فوق كتفيه عاليا ليصفق الصغير بسعادة لحركة أبيه المحببة التي يقوم بها كلما أقبل إليه، صاح بحماسة كعادته:

- طلعني السماء يا بابا..

على العشاء كان الحديث يدور حول طاهر الرضي ومضايقاته الخفية والظاهرة لعائلة الحاج قائد، كان الحنق يملأ قلب الجد الذي أرهقته سنون العمر ولم تفت في عزيمته:

- لا يكتفي طاهر النجس بإرسال رجاله المسلحين إلى محلات التجارة لأخذ الجبايات تحت مسميات مضحكة، فيومًا مجهود حربي ويومًا عيد الغدير ويومًا مولد النبي وآخر احتفال الصمود في وجه العدوان؛ لا يكتفي بكل هذا السحت واللصوصية!!

الآن يريد سرقة أرض البيت من تحت أقدامنا واعتبارها وقفًا ومؤجرة لنا فقط.

أنهى الحاج قائد كلماته الساخطة ورمى الفوطة من يده أرضا وهو يتكئ مستويا في مجلسه.

كان سالم يستمع إلى كلمات عمه النارية صامتا. فيما مختار يحاول تهدئته:

- لن يجرؤ يا أبي على فعل شيء، فصك الملكية يثبت أنها أرض حر مدفوع ثمنها، ثم أنها أرضنا من قبل والجميع يعرف ذلك.

- هؤلاء يا ولدي لا يفهمون في حقوق أو صكوك؛ الجشع والقوة أعمت عقولهم؛ يظنون كل ما في البلد مستباحًا لبطشهم؛ لم يعودوا يقيمون وزنا لأحد، لشدة خشيتي من أفعال ابن الرضي التي خرجت عن العرف والتقاليد لم أترك صك ملكية الأرض في البيت هنا؛ فهو لا يتورع هو وعساكره من اقتحام البيت لأية حجة تطرأ في باله.

لقد أشيع قبل شهور بين تجار السوق عن فعلته الغبراء حين تقدم خاطبا زوجة أحد القتلى الذين يرسلهم إلى الجبهات لأحد أتباعه وحين رفضت غير مقتنعة بمقتل زوجها أوهمها أن لديه خبرًا أكيدًا عن مقتله وأن جسده أحرقته طائرات التحالف وعليها أن تقتنع أنها لن تتمكن من رؤيته، وما كان من والد المرأة إلا أن قام بتزويجها من المرافق الخاص لطاهر الرضي قبحه الله وهي مكرهة على ذلك.

المصيبة أن زوج المرأة عاد من الجبهة بساق مبتورة!! عاد ليجد زوجته في أحضان مرافق الرجل الذي ذهب به إلى الموت!!

وأصبح الأمر فضيحة تتكتمها القبيلة وهي في وجوههم!! يا لها من فعلة مغبرة لم يسبقها مثيل!!

هذا الخبيث لم يبق على أخويه الاثنين في سبيل السلطة والحكم ودفع بهما إلى محارق الموت كي يصفو له الجو فلا يتقاسم معهم الأملاك التي سلبها من الرعية، فكيف سيراعي الجوار والعيش والملح الذي بيننا؟!!

لقد تركت صك الملكية عند عمك سلطان، لعله هناك أكثر أمانا ما دمنا نحن وطاهر الرضي وجهًا لوجه.

قال كلمته ونهض مستأذنا ليخلد إلى النوم.

***

التفت مختار نحو ابن عمه متسائلا:

- طوال وقت الغداء وأنت صامت يا سالم، والآن ونديم والأصحاب هنا وأنت على مكانتك يا ابن العم، هل هناك ما يضايقك ؟!

التفت سالم إلى مختار قائلا بشرود:

- ليس بي سوى هموم المعيشة وهذا الحال الذي وصلنا إليه؛ أسعار المواد الغذائية ترتفع بصورة جنونية بفعل الضرائب؛ والناس في المدن مثلهم في القرى في طريقهم إلى مجاعة حقيقية، منذ حدثت نكبة ثورة الشباب وحالنا يتدهور بصورة لا تحتمل، هذه السنوات الأخيرة أعادتنا إلى الوراء عقودا بفضل ثورتهم.

قاطعه عمر بنزق:

- ولماذا ترد ما يحدث لثورة الشباب يا عم سالم؛ هؤلاء حاولوا تغيير حال البلد للأفضل، لكن حجم المؤامرة أكبر من قدراتهم.

حدج مختار ولده بنظرة غاضبة. لا يعجبه أبدا ما يحدث من استفزاز بين ولده اليافع وابن عمه كلما التقيا؛ جعله هذا يرد مسكتا ولده عمر:

- لعل لسانك أنت سبب انصراف ابن عمي عن بيتنا مؤخرا، كف عن مجادلة عمك سالم في كل صغيرة وكبيرة يا عمر.

قال عمر محاولاً تلطيف الجو وهو يرى وجه عمه سالم قد استحال إلى ظلام:

- المدينة تستقبل الجميع يا أبي وبيت جدي قائد مفتوح لكل من يأتي؛ محبة الناس حولنا جعلت البيت للجميع، لكن لعل عمي سالم

صار له بيت جديد هنا فاستغنى عن بيت عمه. وضحك ملمحا إلى وجود زوجة أخرى.

لكن دعابته زادت ملامح سالم اكفهرارا، فرد بغضب لا يقبل مزاحا:

- هل تعتقد يا ابن أخي أني قادر على إشباع الحرمة التي في البيت حتى أفكر في مصيبة أخرى ؟! هل تظن أني فاضل أو جميل عمَّاك اللذان ينعمان بتجارة أبيهما ؟

رد عمر بغيظ لم تخففه نظرات والده المحذرة:

- لا يا عم سالم ظننتك مثل عمي ناصر الذي يجمع ثلاث نساء في دار كبيرة من خير أراضي القرية، ومن شجرة القات التي غرسها في أرض زراعية!!

قطع جدالهما مختار بضيق شديد قائلا لولده:

- أجلب كرتونة ماء بارد من الداخل يا عمر.

نهض عمر على عجل كأنما أنقذه والده من مزيد من الجدال الذي يوغر صدر عمه فقد شعر لأول مرة بالقلق من نظراته النارية.

في طريق عودة سالم إلى القرية كان صدره يشتعل غيظا، أشد من اشتعال موتور السيارة، لن يغفر تطاول ابن مختار في مجلس الرجال!! أخذ يحدث نفسه بغيظ:

- هه، حتى ذلك الصبي الأرعن صار يتحدث عن أملاك جده قائد وبيته الكبير المفتوح للجميع، وخير أراضي القرية!! هل يلمح ذلك المدلل إلى نصيب فيها وقد تملكوا في المدينة أكثر!!

يجب أن يعلموا أن هذا البيت الكبير والتجارة من حق سالم وأولاده أيضا"

لكن تساهل أبيه الحاج سلطان هو الذي جعل عمه قائد وهو الأصغر يستحوذ على الوجاهة وكل شيء وأحفاده من بعده يتطاولون على سالم الذي عرك الحياة بدلا من أن تعركه. يحدث نفسه بكل الغيظ الذي في قلبه.

ستندمون جميعا يا أبناء العم لن أترككم تنعمون بالمال والوجاهة أبدا.

****

-10-

كان مختار يثق أن شيخوخته مع سالم ستكون مثل شيخوخة والديهما؛ فأجمل الذكريات التي تحتفظ بها ذاكرته كانت لجلساتهما معا في منزلهم في المدينة أو في الدار الكبير في القرية.

والداهما أخوان قد امتزجا بروح واحدة رغم اختلافهما الكبير؛ قائد الذي سعى إلى حياة المدينة بما فيها من يسر ونظافة وتحضر، وسلطان الذي غلب عليه طبع الشدة وتملك الأرض، تلائمه حياة الريف بما فيها من بساطة وبداوة؛ فقد اعتاد أن يشرب السمن البلدي كالماء ويرشف الحليب من ضرع البقر ساخنا.

والده الهادئ الرزين وعمه سلطان صاحب الطبع الحاد واللسان اللاذع والمشاكل الكثيرة حتى مع الماشية إذا دخلت أرضه؛ نكاته وصرخاته تتوزع على الجميع بنفس الحدة ولا يسلم منها أحد.

وبالقدر الذي تثير نكاته الفاحشة وتفسيراته اللاذعة خجل أخيه قائد أمام الناس تطلق ضحكاته، كان سلطان يرى أن أخاه قائد قد اختار عمل التجارة الذي يتطلب برودة أعصاب وكياسة يفتقدهما سلطان، فيما يرى قائد أن أخاه يعشق توجيه الأوامر لكل من يعمل في أرضه، وصار من الصعب عليه التنازل عن دور رب الأرض ليقوم بعمل آخر.

حين يجتمعان في مجلس ما، تعلو الضحكات لشدة ما يتبادلان النكات على بعضهما، تكون مهنة كل منهما هي مصدر النكات غالبا:

حدث أن اشتكى والد مختار لأخيه ضعف نظره فقال له ساخرا بخبث:

– ما أعرفه أن هناك أمورًا تضعف النظر يا أخي لعل منها النظر إلى النساء، لذا تستحق مآلك؛ لقد كنت منذ صغرك تسير بين القرى تبيع العنب والرمان وأنت تنادي إلى بضاعتك: الرمان يا صاحبات رمان الصدور!!

ضحك أبو مختار صائحا:

–قاتلك الله أنت وأقوالك وكذبك!! متى كان ذلك أيها المفتري؟!! بل هو التقدم في العمر أيها الأفاك، فهل تظن أننا ما زلنا شابين وقد امتلأ الوادي بأحفادنا.

فيرد عليه الحاج سلطان وعيناه تتقدان ببريق ضاحك:

– أنت تقول ذلك لأن فأسك أصبح صدئا أليس كذلك يا قائد ؟! حياة المدينة سلبت قوتك في فلاحة الأرض.

ثم يطلق ضحكة متحشرجة تشبه ذات الصوت الذي يصدر من "المداعة" حين تقرقر وهو يجذب أنفاسه خلالها.

– هل تتذكر يا قائد حين كنت أرافقك في بعض رحلاتك إلى المدينة حين كنا ننزل نقيل بعدان إلى مدينة الثجة سيرا على أقدامنا؛ الدواب تحمل شوالات الجزر والثوم والبطاطا لبيعها، ونحن نسير بجوارها نقطع الطريق حديثا ومؤانسة.

كنا نقطعها دون أن نشعر بالمسافة، ونعود صعودا محملين من المدينة بسلال الفاكهة. تتذكر كيف كنت تعشق التجارة أكثر من الفلاحة فتعود بصناديق العنب لتبيعها في قرى بعدان، كنت تترك للبيت سحارة كاملة من العنب.

ويستطرد ضاحكا ضحكته التي تشبه قرقرة "المداعة":

-سحارات العنب تلك هي كل ما استفدناه من تجارتك المبكرة.

فيرد قائد بشجن:

- يا لها من أيام!! بسبب تعلقي بمهنة التجارة حرمت ممارسة عادات كثيرة في القرية. أشياء كثيرة حرمت منها بانتقالي إلى المدينة؛ كموسم "التلام" وعاداته التي كانت منتشرة في بعدان من زمان أتذكر تلك العادة المحببة التي كنا نسميها "الدشالة" أو الهجفة، كم كنا نضحك ونتسلى ونحن نعمل أيضا!!

حين يتفق مجموعة منا على عمل مقلب لأحدهم نناديه باسمه مرات من مكان خفي، فإذا رد علينا قفزنا إليه صائحين بضحك وسخرية "دشالة" هييه، أو نردد أهازيج الهجفة بصوت واحد وبكلمات فيها نقد ونحن نضحك ساخرين من غفلته ونسيانه مقالب بداية الزراعة.

(إهيي لك هجفه مهجفه
إهييي تشل دقنتك وتنتفه
إهي وأمك تقول يا ولدي ولدا
إهي وأبوك يقول يا مالي مالا

حينها يشعر أننا غلبناه ومضى عليه المقلب، حتى إنها صارت عادة في الموسم أن يتجنب الناس إجابة أي نداء خوفا أن يكون مقلب الهجفة أو الدشالة.

فيرد عليه سلطان بحسرة:

- عادات كثيرة بدأت تتوارى يا أخي وتصبح تراثا كما يقولون؛ أبناء هذا الزمن أفسدهم التلفزيون والتلفون.

تخيل مختار كثيرا شيخوخته هو وسالم، وكم من الذكريات سيجترانها كأخوين أيضا، إنما مؤخرا لم يعد الأمر كما كان، أصبح مختار في حديثه لابن عمه كأنما يصعد نقيل بعدان متسلقا عورة جباله الشاهقة، فيما يتحدث سالم فينبسط له مختار كوادي السحول وكل وديان إب.

شتان بين ثقل حديث سالم نحوه وبين حديثه اللين الودود!!

سالم يحمل في قلبه حجرا، كم يخشى مختار أن يلقيه في وجهه أو يكسر به ظهره.

****

ظل الحاج قائد والحاج سلطان أخوين يفزعان لبعضهما في المكره والمغنم؛ لم يؤثر في نقاء قلبيهما وفطرتهما السليمة اختلاف حياتيهما مؤخرا، ولا سلوك بعضهما المتباين أحيانا.

جمعهما الدم والمصير المشترك لعائلة واحدة لها ذات الجذور العريقة، يقطعان وقت جلساتهما في المناكدة البريئة والسخرية من أجل الضحك فقط؛ فإذا طرأ عليهما أمر جاد وقفا معا كالسد المنيع، كل منهما ظهر أخيه وسنده.

كانت أكثر ما يثير الضحك بينهما مبالغات الحاج سلطان حول إنجازات الزعيم كما يلقبه الجميع؛ الزعيم الذي صنع ما لم يصنعه أي زعيم عربي.. هكذا يكرر ويؤكد سلطان في كل مقيل يرتاده الأخوان.

تؤيده في ذلك والدة سالم الحاجة حليمة التي تكرر ما تقوله العجائز في القرية حين تصر الواحدة منهن أن فضل الزعيم على فتيات هذا الجيل لا يمكن أن يوصف بكلام؛ يكفي أنه أراحهن من حمل الحطب ووفر أسطوانات الغاز في كل بيت. وملأ الأسواق بشتى الأقمشة والثياب الزاهية من أجل نساء كسولات لا خير فيهن.

تظل تردد في أسماع نساء أولادها قصتها المؤسفة حين تزوجت الحاج سلطان:

– لقد سرت على قدمي من أطراف القرية في زفة عرسي ووصلت وقد جرح الحذاء "الشيكي" الجديد رجلي وتلطخت زنة العرس بوحل الطريق!! أما أنتن فمثل الأميرات تزفكن السيارات حتى باب الدار وتصل حقائب كسوتكن من كل لون وشكل.

لقد عشن أياما قاسية ما قبل الثورة، وعندما تقص الجدات حكايات تلك المعيشة لا يكاد يصدقها الأحفاد، فلم يكن هناك شيء يمكن أن يسمى حياة.

فبجوار المعيشة الشاقة كن يدفن أطفالهن بسبب الأوبئة والجوع؛ فلا رعاية صحية في أدنى مستوياتها لكل الناس وليس المرأة والطفل فقط.

تنجب المرأة في سنوات عمرها عددا كبيرا من الأطفال تحصل المقابر على جزء منه.

لقد بدت لهن الحياة بعد الثورة مثل الولوج إلى الجنة؛ كاللون الأبيض بعد قتامة سواد الإمامة؛ وأصبح الزعيم رمزا لكل هذا الخير الذي تدفق على اليمن.

لكن أكثر نساء القرية وكل القرى المجاورة دفاعا عن عهد الزعيم هي الجدة "ملوك"

لا أحد يجرؤ أن يحاججها في رأيها مهابة لمكانتها؛ فكل القرية تحترمها وتقيم لكلمتها ألف حساب، سبق أن حاول أحد الشباب ذلك حين ذكرها أن كل فضل تراه كان سببه الرئيس الحمدي رحمه الله هو باني حضارة اليمن فعلا، فما كان منها إلا أن لاحقته بالعصا والشتائم حتى إنه أصبح يتوارى منها إذا ظهرت في طريق كان يسير فيها صدفة.

كان للجدة ملوك نهدان عظيمان يسبقانها في مشيها كأنما خلقا ليطعما كل أيتام القرية، رزقت طفلها الوحيد على كبر، ومات زوجها وهي حامل به بحمى قضت عليه في ثلاثة أيام فقط، لكن الطفل لحق بوالده عقب ولادته.

فكانت النساء يأتين بمن ماتت أمه كي ترضعه ملوك، ثم صار يؤتى بمن غابت أمه في الوادي من أجل الحصاد أو كانت مريضة.

أرضعت عددا من أبناء القرية، ولا أحد يدري كم من السنوات استمر اللبن في صدرها ؟ إنما لم يعد من صدرها طفلا جائعا، وصار لها الكثير من الأبناء ينادونها يا أمي.

كانت الجدة "ملوك" تنال بسخرية قاسية فتيات هذا الزمن كما تسميهن وتلحق بهن كل الأوصاف التي تقلل من فائدتهن وتثبت عجزهن عن العمل في البيت والوادي كنساء القرى في زمنها.

لقد أطلقت عليهن ألقابا شنيعة، وصارت الفتيات يخفن من تأثير رأيها على حظهن في الزواج؛ فكانت الواحدة منهن تسارع في مشيتها أو عملها أمام الجدة ملوك خوفا أن تنضم لسرب "الناطلات" كما تسميهن.

لكن الجدة ملوك لم تسلم من سخط بعض شباب القرية الذين صاروا آباء الآن؛ فقد أفسدت رغبتهم بالزواج من فتيات اكتشفوا أنهن أخوات لهن بالرضاعة، فكان ثدياها الكبيران محط سخطهم وتندرهم في مجالسهم الخاصة.

كانوا يتحسرون كثيرا أن علب الحليب المصنع لم تعرف بيوت القرية في طفولتهم عوضا عن أكياس الحليب التي تتدلى من صدر الجدة ملوك.

وحين تغضب حليمة من شدة الحاج سلطان تقول لبناتها وكناتها إن ملوك كانت سببا في إفشال زواجها من رجل أفضل طباعا من سلطان.

فيرد وقد التقطت مسامعه تذمرها:

- حين أرضعت ملوك الخطيب المفقود كنت قد بلغت سن البلوغ يا حليمة، إما أن عقلك صغير حتى تظلي ترضعين حتى ذلك الوقت أو أنك تكذبين يا عجوز.

ويطلق ضحكته المتحشرجة في مسامعها فتضرب حليمة كفا بكف وهي تتعجب من أين له حدة السمع وهو في سن كهذه.

كان الحاج سلطان يضع على رقبة بقرته التي سماها حليمة جرسًا نحاسيًا يرن كلما حركت رقبتها فيسمعه ولو كان بعيدا، كان يعلم متى يرن حين تأكل وكيف يرن حين تحتاج ماء أو علفًا فيصيح بزوجته: يا حليمة انظري حليمة ماذا تحتاج.

فترد بغيظ: لو أنك تهتم لي كبقرتك!!

ويأتيها رده مازحا: أنا أحبها لأنها تحمل اسمك.

-11-

ما أن رأى مختار من خلف مكتبه في محل والده طاهر الرضي قادما بين رجاله المسلحين يسرع الخطى بثقة حتى أدرك أن خلفه مصيبة كبيرة.

منذ صغرهما وهو يعرف نوايا طاهر من طريقته في السير!!؛ هذا المشي المتعجل الواثق تلحقه نكبة مكتملة الأركان، وكم يخشى مختار على أبيه المسن من طيش ونزق طاهر الرضي الذي لا يقيم لأي شيء أي وزن أو تقدير.

دلف طاهر متوسطا المكان وخلفه رتل المسلحين كالعادة وخاطب العمال بصوت جهوري: أين صاحب المحل ؟

تقدم منه مختار مبتسما:

- هل نسيت أن اسم صاحب هذا المكان هو الحاج قائد الإبي ؟!! عمك قائد الذي أكلت أنا وأنت من طبق واحد على مائدته ؟!!

قطب طاهر الرضي بروز حاجبيه وهو يرمي مختار المبتسم بنظرات الغضب، كم يضايقه أن مختار لا يهابه كالبقية!! ولم يؤثر فيه هذا البطش الذي انتهجه في حياته منذ تسلم المسئولية من قبل السلطة؛ لقد انقلبت حياة طاهر الرضي ومختار لا يزال يراه الأبرط كما سماه والده في طفولتهما، ما زال ذلك المتطاول والناكر للجميل في نظره!! وما زالت شريفة تقارنه بمختار في كل مناسبة وهذا ما لن يغفره لمختار أبدا.

ضيَّق عينيه وهو يقول:

- أرض البيت ظهر أنها وقف يا مختار، وعليه إما أن يدفع والدك إيجارها أو نجد حلا للقضية، صك الأرض صار معي وحديثي مع والدك، أما أنت فمعلم مدرسة لا تفهم في أمور الأملاك والحقوق.

أنهى حديثه والتفت منصرفا ليواجه الحاج قائد الإبي قبالته قد وصل لتوه ليسمع كلمات طاهر الرضي الأخيرة، فصرخ بعلو صوته:

- ماذا تعني أن صك الأرض معك يا ابن الرضي ؟!

أزاحه طاهر عن طريقه بقلة احترام مبالغ فيها وهو يقول منتشيا:

- اسأل ابن أخيك سالم الإبي!

غامت الرؤية في عيني الحاج قائد وهو يمد يده يتلمس جدارا يستند عليه وقد ضربته العبارة في مقتل، التقطه مختار قبل أن يهوي أرضا وأسنده بثبات:

- تماسك يا أبي، الأمر ليس لعب أطفال!! هذا حق ولن يضيع أبدا ما دمت واقفا على رجليك.

أرسل الحاج قائد نظراته خلف ابن الرضي ورتل المسلحين وهو يزأر:

-من سماك طاهر والله أنك أنجس من رجل الكلب، ونجاستك لن تلوث أرضنا ما حييت وذريتي من بعدي.

****

لم ينتظر الحاج قائد صباح اليوم التالي، أصر أن يذهب إلى القرية لاستطلاع الخبر اليقين من أخيه وأولاده.

لكن مختار اقترح أن يبقى والده في البيت كي لا يزداد تعبه، فيما يقف أخواه جميل وفاضل في المحل الكبير ويذهب هو وولده عمر إلى القرية لمقابلة عمه سلطان وأولاده لمعرفة الخبر.

لأول مرة في ذهابه إلى القرية يخامره الحزن هكذا، تنثال الذكريات إلى مخيلته مشبعة بالحنين والأسى.

لم يتأمل الطريق المؤدي إلى القرية بذلك الفرح الطفولي الذي لم يغادره كلما نوى الذهاب إلى القرية، لم ينتعش فؤاده والسيارة تتهادى يمنة ويسرة وهي تلتهم الطريق الترابي.

لم يطالع منازل القرى العابقة بنكهة الماضي التي تأسر قلبه، لطالما تلمس جدرانها كأنما يحادثها واليوم يمر بها كأنه لا يراها.

حتى بداية الألفية الثالثة والريف يحتفظ بتلك المباني الضاربة في القدم بطابعها الشعبي وحجارتها السوداء وسقوفها الترابية غير المنتظمة، يتقاسم فيها الإنسان والماشية السكن بكل أريحية.

المباني الجديدة أيضا تنتشر مزروعة بين البيوت القديمة فتضفي منظرا ملفتا بين القدم والحداثة، خاصة في القرى التي غالبية أهلها في الغربة كأمريكا فقد تبدلت قرى الشعر ودلال كثيرا بفضل غربة أبنائها هناك.

مع ذلك لا تزال هناك دور قائمة في بعدان إلى ما قبل 450 سنة، وما زالت الحصون ترتفع آثارها في أعالي الجبال كحصن "حب" أجمل معالم بعدان.

وما زال الشذاب والمشقر والداجية تزين سقوف المنازل التي تتلاصق في حميمية كأنها تعاضد بعضها للوقوف.

جدران البيوت من الخارج أفضل من الداخل عادة، وللحجرات تسميات مختلفة بحسب استخدامها منها الخلوة أو المفرج أو السمسرة، الجدران الداخلية والسقوف كانت تصهر بالطين المسمى كربة أو بالنورة البيضاء حتى تغطي ملامح الخشب الذي تسقف به ويحتفظ الخشب بتفاصيله كسيقان وفروع واضحة للعيان.

تنهد مبتسما محدثا عمر:

- في طفولتنا البعيدة كان يحلو لنا أن نخفي أشياءنا الثمينة في شقوق سقف البيت الكبير، كنتُ وسالم أكثر أبناء العمومة قربا، كنا كفرسي رهان للمستقبل؛ أمّلت عائلتنا بنا الكثير حين دخلنا مدرسة القرية قبل أن يقرر جدك الانتقال إلى المدينة، لكن مشاق الحياة ومصالحنا تناقضت وكلٌ منا مضى في سبيله.

أتذكر طفولتنا وحين كنا يافعين!!

كان جدك سلطان مثل كل أجدادنا الأولين حين ينامون في أكياس من القماش تشبه الأكفان تماما، كانت غالبا لونها أبيض من قماش يسمى الكرمبلي يندس الشخص داخلها عاريا ويغلق الكيس برباط من الداخل، كنت أرى هذا الفعل شجاعة من

جهتين أن ينام المرء عاريا تماما، وأن يربط الكيس ويعزل نفسه بلا حول ولا قوة في شكل أقرب إلى شوالة البطاطا يمكن لأي شخص أن يحملها بعيدا.

أكياس النوم هذه كانت من أجل حماية أصحابها من لدغ الحشرات والقمل والهوام في بيئة الريف البسيطة والقاسية أحيانا.

أتذكر أن عمي سلطان ضرب لنا رهانا أنا وسالم، من يستطيع منا البقاء من المساء وحتى الصباح داخل كيس النوم هذا، يومها خسرتُ أنا الرهان فلم أتحمل البقاء داخله أو يغمض لي جفن، لكن سالم أصر أن يقضي الليل وجزءًا من النهار داخله في عناد كي يثبت لي شجاعته وتحمله، لم يخرج من الكيس رغم أن أطفال العائلة الصغار حولوا كيس النوم إلى مطية يركبون عليه في لعب وتسلية.

هكذا هو سالم يمكنه أن يفعل أي شيء كي يثبت للجميع أنه الأفضل.

****

أصر الحاج سلطان والد سالم أن يترك ابنه الدراسة بعد الإعدادية كي يذهب إلى الغربة ويحقق حلم والده بشراء آلة حراثة ميكانيكية بدلا من الأثوار التي تنفق عقب كل موسم زراعة، مؤمنا أن أهالي القرية يصيبونها بعين حاسدة لقوتها في حراثة الأرض وتلك البركة في حصاد الزرع.

ورغم أن أمر والده وافق هواه فحلم الغربة يجاذب كل من في عمره إلا أنه قال له: – العين تدخل حتى في الحجر سيصيبون

حراثتك بعين تعطبها فلا تعمل، أكون خسرت دراستي وخسرت حراثتك.

فصرخ والده مغضبا: أنت أجلبها من الغربة وسأجعل الشيوخ كلهم يرقونها، فالعين حق تؤدي بالرجل إلى القبر والجمل إلى القدر ولكن ذكر الله حماية من كل شيء.

تمنى سالم أن يرد على والده قائلا: لماذا لا تقوم برقي الأثوار إذا ؟

لكنه تذكر آخر مرة تلاسن فيها على والده حين رماه بأقرب حجر كانت قربه وأصاب بها كاحله الذي ما زال يؤلمه حتى الآن.

المرة الوحيدة التي جابه بها والده بشراسة حين أصر على أخذ زوجته إلى الغربة معه؛ كانت قد أنجبت طفلتها الأولى بعيدا عنه، وكان رفض والده صارما كالعادة بحجة أن أخذها سيحرم الأسرة خير حوالاته المالية التي ستكون لعائلته هناك في الغربة.

لم يتركه والده يرحل بها إلا بورقة ممضاة منه أنه سيرسل شهريا مبلغا ماليا.

كانت أحداث عودة المغتربين اليمنيين في حرب الخليج هي كابوس سالم المضني رغم أنه عاد إلى الغربة بعد انتهاء الأزمة لكنه يخشى أن يأتي يوم يشبه ذلك اليوم.

لم يكن يعلم أن حربا ستنشب بعدها بأعوام طويلة يكون خروج المغترب اليمني أو بقاؤه له ذات الوقع الحزين.

لم يكن كمغترب يحن إلى الوطن، وكلما سمع في الغربة قبل زواجه أغنية "ارجع لحولك كم دعاك تسقي" يهزأ برفيقه بالسكن حين يسمعها قائلا:

– سقاك الله بول ثور، كله شقاء وتعب هنا أو في حولك. سأرجع لو كان الحال غير الحال.

عاد سالم باندلاع حرب الخليج لكنه لم يعد ليسقي أرضه كما كان يعرف عن نفسه بل عاد ليبيع الحراثة ويحطم قلب أبيه، ويغامر في مشروع تجارة سانده فيه عمه قائد كثيرا، تزوج فتاة من المدينة كما كان يتمنى، وأستأجر بيتا قريبا من بيت عمه وعاش أجمل أيام عمره رغم غضبة أبيه عليه.

لكن الحظ عانده مرة أخرى وتبدد ماله وتراكمت الديون وضاعت التجارة.

وعاد بزوجته بكل الخيبة إلى بيت القرية.

هناك تقلب بين جحيم ملامة أبيه ونقمة زوجته وكراهيتها لحياة الريف وعودته لفلاحة الأرض وانتظار المحصول.

حينها بدأ يفكر في خيارات حياة أبيه الفاشلة؛ يرى أنه ظلمهم باختياره البقاء في الريف عوضا عن اختياره المدينة والتعليم لأولاده.

في غربته الأولى كان يافعا يمتلئ بروح المغامرة والتطلع لصنع المستحيل من أجل نفسه ومن أجل والده رغم غصته لترك دراسته دون إكمال حتى الشهادة الثانوية.

في الترحيل الإجباري الأول من السعودية بعد حرب الخليج عاد دون حماسته وروحه تلك، عاد مقتنعا أن كل ما يفعله المرء في غير بلده ليس سوى حرث في البحر. وأن الأجداد الذين قالوا: "صلاة في غير بلدك لا لك ولا لولدك" كانوا يقصدون هذا الذي يشعر به، يقصدون أن أي عمل تقوم به في غير بلدك هو عبادة ليست لك أو لولدك.

حاول أن يكون أفضل من مختار الذي أكمل دراسته وأصبح معلم مدرسة، لكنه تمنى الآن لو كان مثله يتسلم راتبه الشهري ويحصد مكانة رفيعة بين الناس، لكنه حصد خيبة حظه وسوء تقدير أبيه.

صار أسير الغربة والعمل خارج وطنه فما أن انقشع ضباب حرب الخليج وتسلل المغتربون عائدين إلى العمل في أرض الخليج حتى حمل نفسه بكل الأمل وعاد الى الرياض؛ فقد ترك زوجته حاملا وقريبا سيصبح أبا.

الآن يحمل في صدره أثقال الحقد على المملكة بعد خروجه نهائيا بعد انقلاب 2014، لا يتوانى عن الدفاع عن الحوثيين ويحرص على تسميتهم بأنصار الله، حتى أنه يصرخ في وجه مختار بثقة كلما جمعهم نقاش حول الأوضاع:

– إنهم يقاتلون المملكة التي سرقت عمري وصحتي ثم أغلقت أبوابها في وجه أمثالي وهذا يغفر لهم كل شيء.

كما أنه مثل والده الحاج سلطان يصر أن الزعيم صالح كان سياسيا محنكا وقائدا عظيما وأنه شهيد الوطن، لقد جمع في قلبه

تناقضا مضحكا هو حبه الشديد للزعيم صالح واحترامه الشديد لقتلته.

"التاريخ يعيد نفسه" هكذا حدث سالم نفسه وهو يطالع ولده غانم واقفا على باب الدكان يكاد يسد المدخل بجسده الغليظ رغم وزنه الذي يتناقص وهو يقول:

-لماذا لا تشتري لي تأشيرة كي أسافر إلى الغربة مثلك.؟

-هل تمزح يا ولد ؟ ألا تفهم ماذا يجري حولك ؟ لقد أصبحت الغربة أقرب إلى المستحيل بسبب ثمن التأشيرة وشروط الكفيل وقوانين السعودة ؟

مطّ غانم شفتيه كعادته وهو يتوعد أباه قائلا بصوته الثخين:

- سأذهب تهريب إذا، لن أبقى هنا لتبقيني كصبي في دكان القرية وكأنها تجارة جدي قائد، لن أبقى أمامك لتسمعني عبارتك التي حفظتها عن مستقبلي كما تراه أنت.

انتفض سالم من مكانه صارخا في وجه ولده:

- تهريب ؟!! تريد السفر تهريب عبر الحدود ؟ ألم تسمع قصة ابن السراج ؟ ألديك عقل يا ولد ؟ ابن السراج بكل دهائه ونشاطه عاد نصف مجنون بعد رحلة تهريب مضنية وأنت يا دجاجة تريد التهريب عبر الحدود ؟

ثم انحنى سالم نحو الأرض كما كان يفعل والده الحاج سلطان ملتقطا أول حجر صادفتها أصابعه وهو يهوي بها نحو غانم الذي تفاداها رغم ثقل حركته قبل أن يجري رافعا بنطلونه الذي انزلق.

ظل والده يصرخ بعبارته ذاتها حتى غيبه منعطف الزقاق المقابل لدكانهم.

- أنت لن تنفع في شيء لا دراسة ولا زراعة ولا شيء!!

لهث غانم بحنق وهو يهرول مبتعدا: حتى هذه البنطلونات غدرت بي واتسعت بعد أن خف وزني؛ اللعنة على كل شيء.

جلس سالم ساهما يتذكر رحلة ابن صديقه التي قصها على جمع من رجال القرية.

كان قد قرر مع عدد من شباب القرى المجاورة السفر عبر الحدود مع مهرب تقاضى من كل شاب خمسمائة ريال سعودي، ولقد عانى من فكرته هذه أهوالًا تقشعر لها الأبدان وهو يزحف في صحراء مظلمة أو يتسلق جبالًا شاهقة أو يهوي بالحبال من منحدرات سحيقة، يشم في طريقه رائحة جثث مات أصحابها جوعا أو تكسرت رقابهم لوعورة الطريق أو قتلوا من قبل المهرب أو برصاص حراس الحدود.

يحكي كيف فقد أحد الشاب عينه حين ضرب الرصاص حولهم ذات ليلة ولم يدر أحد كيف ارتفعت حجر صغير لتقتلع عينه. كيف كتم المهرب صرخاته حتى لفظ أنفاسه رعبا وألما.

في نهاية رحلة دامية أصيب فيها بعرج دائم أمسكه الجنود داخل المملكة ليتم ترحيله بعد ضرب ومهانة لا تصدق.

تخيل كل هذا يمر على ولده غانم المسكين بضعف فهمه للأمور فدمعت عيناه.

****

-12-

وصل مختار البيت الكبير في القرية، استقبله مجيب الابن الأكبر لعمه سلطان بكل الود والاحتفاء، وحين قدم عمه سلطان أخذه جانبا في ركن الدار وسأله عن صكوك الأرض!!

بدا عمه مندهشا لسؤاله قبل أن تبدو عليه مظاهر الحنق من ابن أخيه فمجرد السؤال هو إهانة قال حازما:

- لا تنس أني كبير العائلة يا بن أخي، سؤالك هذا لا يعني إلا عدم حرصي عليها وعلى أخي وأمواله، ما الذي دعاك أو جعل أخي يرسلك لسؤالي ؟

حدثه مختار عن تطور النزاع بينهم وبين عائلة طاهر الرضي وما قاله طاهر في آخر تهجم له على محلات والده.

أظلم وجه الحاج سلطان لكنه لم يبن لابن أخيه، ونهض من مجلسه وهو يطلب من ولده الأكبر البقاء مع مختار.

خرج باحثا عن أحد أحفاده أو أولاده وصادفه غانم يفترش إحدى الحجرات يكاد يزاحم نفسه في المكان وهو يشاهد التلفزيون، ركله بقدمه بغيظ وهو يقول:

- قم يا أخبل قم من رقدتك هذه كالنفاس، اذهب إلى أبيك قل له يأتي في الحال.

نهض غانم بكل العجلة التي يسمح بها ثقل جسده، لم يكن يخاف أحدًا مثل جده سلطان حتى والده لا يلقي له بالا مثل جده الذي يتقافز مثل التيس في وجه الجميع.

توجه الحاج سلطان إلى خلوته الخاصة التي لا يدخلها سواه وزوجته حليمة، هناك يحتل إحدى زواياها صندوق حديدي عليه نقوش ملونة لم يصل الصدأ إليها بعد رغم قدم هذا النوع من الصناديق، فتح أقفاله الثلاثة ليخرج علبة حديدية أخرى تفحص محتواها قبل أن يغلقها بعنف، جلس مطأطئ الرأس غير مصدق أن هناك من تجرأ ووصل إلى الأوراق المهمة للعائلة.

هل يفعلها سالم اللعين ؟!!

في أحد الصباحات العامرة بالخير من أيام الحصاد وقف سالم أمام والده الحاج سلطان وقد استجمع شجاعته في مواجهة لسان أبيه اللاذع ونقده المستمر، كان قد لف ودار كثيرا حول موضوع أرض القرية التي لم تقسم حتى الآن بينهم وبين أسرة عمه قائد.

كان يطمع أن يصل بوالده إلى أن أملاك عمه في المدينة هي من حق العائلة كلها ما دام قد اشترى وبني وتاجر من خير أرض القرية.

أخذ يسأل حول غلة الأرض التي شح عطاؤها كثيرا بخلاف أرض الحاج سعيد، فكان رد أبيه جدارا أمام بقية حديثه:

– عرقنا هو سماد الأرض يا سالم وبقدر عرقك تكون ثمارك. قالها الحاج سلطان بثقة واستطرد ناهرا ولده:

– وأنت أهملت أرضك حين آوتك، وتركتها للأجراء يعبثون بخيرها، حتى غربتك لم تحاول أن تدخر فيها كي تحسن في هذه الأرض، أتذكر أيها اللعين حين عدت من أول غربة لتبيع "الحراثة"

ولم تتركنا نستفيد منها في أرضك هذه، "الحاذق يخرج من السوق عطلان" يا ابني.

حين أعطيتك أفضل "الجرب" من هذه الأرض "رابعتها" عند الناس بدلا من فلاحتها بنفسك. الآن تأتي لتقول لي أين أرضنا وأين أرض عمك، ولماذا ليست مثل أراضي الحاج سعيد ؟!!

أنت وإخوتك فضلتم انتظار المحصول حتى يجنى ويصل إلى أيديكم، لم تحاولوا أن تفعلوا شيئا غير امتصاص خير الأرض عاما بعد عام، كان بمقدورك أن تكون لك تجارة مثل عمك قائد، لكنك صرفت أموالك على لهوك أنت وزوجتك المتمدنة.

فيما ناصر الملعون يجمع النساء كالبقر إلى حظيرته، ويقوم بزراعة القات في الأرض الزراعية بدلا من الحبوب التي نأكل منها، وماذا يفعل مجيب غير تقليدكما، والبقية في الطريق لا ريب.

أفضل الأرضي هنا معك أنت وإخوتك.. قل لي ماذا فعلتم لها كي لا تبور.. ها قل لي ؟!!

ولا تنظر لأرض الحاج سعيد فحقه "الجرب" من حق الجمهورية مباركة وغلتها مضاعفة ومن أكبر الأطيان في المنطقة، وهو يوليها كل عنايته.

فيقاطعهما حفيده ابن ناصر قائلا: كيف يا جدي حق الجمهورية ؟

فيرد وهو يتأمل نجابة التعليم في عينيه:

– هذه الأراضي يا ولدي كانت مع الإمام عندما كان يبسط على كل أرض مليحة ويأخذها، يأخذ كل شيء كحق له ولا يعطي الناس أي حق، لا تعليم ولا مستشفيات ولا طرقات ولا معيشة

نظيفة مثل سائر بلدان العرب في ذلك الوقت، كل البلدان نهضت وجاهدت أن تلحق بركب الحضارة إلا بلاد أعظم الحضارات اليمن. ومع قيام الجمهورية عادت هذه الأراضي لأصحابها أبناء هذا الشعب وميزها الناس باسم الجمهورية.

لم يعرف اليمنيون الازدهار والرخاء إلا في عهد الزعيم علي صالح رحمة الله عليه؛ لقد صنع ما لم يصنعه رئيس قبله، وتحمل من جحود هذا الشعب ما لم يتحمله أحد، وقضى شهيدا وهو يقاوم الإمامة الفاجرة.

قاطعه حفيده مرة أخرى:

- هل تقصد أنصار الله يا جدي ؟

حشرج الحاج صالح صائحا:

- نعم أنصار الجن عليك أنت وأبوك، ما أكثر أسئلتك كالنساء!!

نقول لهم أنصار الله لنتقي شرهم فقط، الحديث عن الزعيم يسبب لهم حساسية مؤلمة، وتذكيرهم بعهودهم السابقة يجرح مشاعرهم القذرة.

واستطرد وهو يضحك ضحكته المتحشرجة بسبب التنباك الذي أفسد صدره:

- حتى المرتبات لا يدفعونها لمعلمك كي يتحمل أسئلتك الكثيرة، هي أيضا تسبب للإماميين حساسية مزمنة، كان جدهم الإمام ينقد العسكري "البورزان" تنك شعير أو تبن إذا وجده لا يستحق "البقش".

****

-13-

قضى مختار ليلته في ضيافة عمه وأولاده، لم يقدم على طلب صك الأرض لرؤيته مرة أخرى احتراما وتقديرا لعمه لكنه ألمح برغبته في التأكد من المكتوب فيه وانتظر ليلته حتى يأتي عمه بالصك بنفسه.

كان عمه سلطان قد اجتمع بأبنائه في حجرة منفصلة عن البيت ليعرف من خان ثقته وفتح الصندوق وأخذ صك الأرض منه!!

أقسم الجميع إلا سالم الذي لجأ إلى المراوغة أمام أبيه وقد أعد عدته للمواجهة حين يكتشف أمره، قال لأبيه مبررا:

- لن يحدث للأرض شيء يا أبي؛ كل ما في الأمر هو محاولة إثبات حقي أنا وإخوتي في هذه الأراضي والأملاك التي يريد عمي الانفراد بها، كأنما لا يكفيه وجاهته بين الناس على حسابك أنت وأنت كبير العائلة، هذه مجرد لعبة مع ابن الرضي، الذي سينتزع الأرض ويقسمها بيننا فهي حقنا أيضا.

صرخ أخوه الأكبر مستنكرا قبل أن يفتح الأب فمه:

- تلجأ إلى الغريب كي ينصفك من ابن عمك ؟!! هل جننت ؟ وأي غريب لجأت له!!! هذا الذي ينهب كل أرض تصادفه سيعطيك منها يا خائن الأمانة!!

كان لوجوم الأب أثره فقد ارتفعت أصوات الإخوة مختلفين بحدة بين رافض للفكرة وبين مؤيد لها، وبين من يلوم سالم لعدم مشاورته أحد، وانفضوا دون أن ينبس الوالد بكلمة!! كانت مصيبته أكبر من كل حديث.

بقي سالم جاثيا أمام أبيه كأنما ينتظر نطقا بحكم إدانة وإعدام!!!

رفع الحاج سلطان بصره ونظر إلى وجه ولده المضطرب قائلا:

- أمامك يومان فقط لتعود بصك الأرض وإلا تركتك لابن الرضي الذي سيعلمك معنى الغدر وخيانة الأمانة فعلا بعد خيانتك للعائلة كلها وليس ابن عمك فقط.

قضى الحاج ليلته هائجا فلم يجرؤ أحد على مخاطبته في حين أخبر مجيب ابن عمه مختار بما حدث، والذي أصابه الخبر بوجوم وقهر نطقت به خطواته وهو يستقل سيارة القرية عائدا إلى المدينة.

توارى سالم عن أنظار مختار؛ ولم يكن بحاجة لذلك فمختار كان يخشى أكثر منه أن يصادفه في أزقة القرية أو "الجرين" حيث استقل السيارة.

كان صعبا على مختار كثيرا أن يرى في عيني ابن عمه الذل والمهانة أمامه بعد فعلته هذه، حتى عمر أشفق على أبيه فلجأ إلى الصمت رغم أنها كانت فرصة سانحة لتكون الحادثة المروعة هذه إثباتا لرأيه في عمه سالم.

كانت مواجهة مختار بأبيه بعد ما عرف بالأمر أكثر مشقة من مواجهة عمه صالح له لو فعل واعترف بفعلة سالم، لكنها كانت فعلة غبراء عارها يجعل الجميع يخفي وجهه خزيا وحرجا.

أصبحت الكارثة الآن واقعة حقيقية وعلى العائلة كلها مواجهتها، لا يجدي نبذ سالم أو معاملته بالاحتقار الذي ملأ قلوب الجميع خاصة وقد أبدى ندمه حين قدم إلى المدينة ودخل في عراك مع طاهر الرضي في عقر داره كي يستعيد صك الأرض ونال ما تنبأ به والده من غدر أبن الرضي الذي ألقى بسالم إلى مرافقيه المسلحين الذين أوسعوه ضربا وإهانة حتى شجوا رأسه.

كان طاهر الرضي يعد العدة للبسط على الأرض بعد أن أعماه الطمع ولا توجد في نظره قوة في الأرض تمنعه من ذلك، وكان اللجوء إلى مماطلة القضاء استنزافًا لأموال وتجارة قائد الإبي وعائلته؛ فهذه القضايا بالذات تأخذ سنوات طويلة في المحاكم وما أسهل الاحتيال لصدور حكم ظالم ضد عائلة الإبي.

لم يعد يجدي في هذه الحالة سوى إظهار القوة والاعتصام بالقبيلة والدفاع عن الأرض مهما كان الثمن.

ستكون خسارات فادحة في كل شيء..في كل شيء.

لكنهم لن يخسروا الأرض أبدا، الخاسر الوحيد هو سالم، لن يغفر له أحد فعلته المنكرة مهما حاول أن يظهر نواياه الطيبة بعدها؛ لقد كان غبيا وأحمق في نظر رفيق عمره مختار، وحقيرا وسافلا في نظر عمر، وحصيفا في نظر ناصر فقط.

لكن الحاج قائد وأخاه سلطان يشعران بالخزي والقهر من فعلته التي جرت على العائلة مشاكل لا تحصى.

****

-14-

اختفى بهاء هكذا بكل بساطة..

في نهاية اليوم ووالدته فتحية تبحث عنه في حوش المنزل لا تجده، ترسل إلى جده في المحل ربما اصطحب الصغير معه، فيرد أنه يظنه عاد مع أبناء عمه إلى البيت.

يعود الجميع من بحثهم ليقولوا إن بهاء الصغير اختفى؛ بهاء الذي بالكاد يترك ثوب والدته في كل خطوة تتحرك فيها خارج منزلهم، بهاء الذي يراه عمها قائد ضياء البيت اختفى، كان يصطحبه معه إلى المحل كي لا يكون رابع البنات كما يقول وهو يراه ولدا خجولا بهيئًا كاسمه.. بهاء الذي يراه جده قائد أهم الأسباب التي يستيقظ من أجلها مبتسما راضيا اختفى!!

أين سيختفي بهاء ابن الست سنوات وهو لا يجرؤ على الخروج حول البيت دون أمه أو إحدى أخواته أو أخيه عمر، أو مرافقا لجده.

- ربما ابتعد عن البيت ولم يعرف طريق الرجوع.

تقول عمته غالية وهي ترتدي حجابها على عجل. سأخرج لأبحث عنه، فتصيح والدته بقلب ملتاع: خذيني معك سأخرج أيضا لأبحث عن ابني.

طوال يومين والمدينة كلها لا عمل لها سوى البحث عن بهاء مختار ابن المعلم الذي تخرج على يديه آلاف الطلبة.

تغيب أمه عن الوعي وتستيقظ لتغيب مرة أخرى، تقدم مختار في العمر دفعة واحدة وبدا في عمر والده قائد الذي تهالك واجما لا يدري أين يبحث عن حفيده.

غالية وأخواتها وبنات أخيها عرفن أزقة الشوارع والوجوه كما لم يحدث منذ ولادتهن؛ يسألن المارة ويذهبن إلى أبعد نقطة تتخيلها قلوبهن الملتاعة.

مختار الذي كان يسمع أخبار اختفاء الأطفال، واغتصابهم التي فاحت في الآونة الأخيرة لم يكن يتخيل أن يكون يوما ضحيتها طفله الصغير.

كان يبعد هذه الأخبار عن مسامعه برعب غير مصدق أن هناك من يطاوعه قلبه أن يخطف طفلًا أو يعتدي على براءته.

كان يغمض عينيه هامسا برعب: اللّهم الطف بعبادك.

حتى الآن لا يصدق أن هناك من اختطف بهاء عنوة، من يستطيع أن يفعل ذلك ؟

فكر أن طاهر الرضي هو من فعلها كي تكون ورقة ضغط من أجل ترك الأرض له!!

لكنه يعلم أن طاهر أكثر جرأة على فعل أشياء أكثر إجراما جهارا لا يلجأ لسترها.

ربما سقط الولد في حفرة مجاري، ربما أخذه السيل، لكنه ليس موسم الأمطار يا مختار، ربما هو في بيت أناس طيبن يبحثون عن أهله، لكنه في السادسة يردد بفصاحة أنا بهاء مختار قائد الإبي، أبي مدير مدرسة علي عبد المغني.

الجميع يعرف التاجر المحسن قائد الإبي وولده معلم المدرسة مختار الإبي.

هكذا علمته غالية أن يعرف بنفسه حين يسأله أحد ما اسمك يا بهاء ؟

أين أنت الآن يا بهاء ؟

****

ذهلت فتحية عما حولها وصارت تحدث نفسها وهي تدور كالقطة الحبيسة في الدار مرددة اسم بهاء بنواح أقرب إلى الحشرجة..

-أين أنت يا بهاء يا ولدي ؟ ثم تقفز كالملدوغة لترتدي حجابها وتهم بالخروج في الليل للبحث عنه وحين يمنعها عمها قائد تصرخ فيه كالمجنونة:

- ابني بهاء بالغدرة يا عم، أتركوني أخرج ستخرج نفسي إن جلست أنتظر.

أخيراً وصلهم خبر عن بهاء..

اتصال مقتضب يصل هاتف مختار مساء اليوم التالي لاختفائه يقول لهم إن بهاء في القرية، ولم ينتظروا حتى الصباح، أصرت فتحية بعناد لأول مرة أن تذهب معهم.

كانت تسحب أنفاسها في السيارة بمشقة عاجزة عن التوقف عن الرعدة في كامل جسدها.

الحاج قائد صامت كأنما يخشى أن يكسر شيئا لو نطق، متهالك كأنما في آخر رمق، عمر فقط يتحدث على الهاتف طوال

الطريق؛ يكلم رفاقه الذين شكلوا فرق بحث أنهم وجدوا أخاه بهاء.

مختار يدور في دوامة من الأسئلة التي يخشى إجاباتها!!

كيف ذهب الولد إلى هناك ؟ كان هذا السؤال يحفر عميقا في رأس مختار، لم يفكر كيف هو بهاء وكيف حاله، هو في القرية، مسقط رأس والده وجده، حيث ذاق مختار وكل عائلته أجمل أيام عمرهم، سيكون بخير ما دام في أرض الخير.

لكن كيف وصل إلى هناك ؟ من أخذه إلى هناك ؟هذا ما يشعل تفكيره بكل القلق والحيرة.

هل صعد إلى سيارة القرية مستأنسا بأحد أبناء عمومتهم وهو الخجول جدا، ولم يكتشفوا وجوده إلا هناك، لكن كيف؟ كيف وصلت إلى هناك يا ولدي؟!.

ساعات بدت كسنوات حتى وصلوا القرية، وأمام الدار الكبيرة للعائلة ظهر تجمع أبناء عمومته وأهالي القرية واضحا.

كانت الخطوات الفاصلة بين نزولهم من السيارة ووصولهم إلى ساحة الدار أشبه بدهر كامل أكل أرواح أربعتهم وشرب.

طالع مختار وجه ابن عمه ورفيقه سالم وبدا له كأنما لا يعرفه..

كان سالم مظلمًا تماما؛ وجهه تحول إلى بقعة كالحة متجعدة؛ سنوات الغربة والتعب ومصيبته مع ابن الرضي وأثقال السنوات كلها تجمعت في تلك اللحظة على وجه سالم كآبة لم ير مختار مثلها

أبدا فانطفأ نبض قلبه فجأة واعتراه الدوار وسقط على الأرض هناك مغشيا عليه بين يدي ابن عمه.

****

على أحد فروع شجرة التين العتيقة في أطراف الوادي كان جسد الصغير بهاء يتدلى مثل ثمارها وقد فارق الحياة.

وجده الرعيان صباحا وما زال جسده لينا طريا ونظرته المنطفئة تتسع في وجهه المزرق من الاختناق.

تنادى أهالي القرية على صرخات الرعيان وقدموا تباعا حتى وصل الحاج سلطان وأنزل بيديه جثمان الصغير وهو يضرب رأسه بيده غير مصدق مصيبته هذه.

تواردت الأخبار أنه كان برفقة ابن عمه غانم مغرب ذلك اليوم، وأن غانم اصطحبه إلى الوادي ورآه عدد من الناس اللذين مر بهم في طريقه.

لقد كانت جريمة قتل مع سبق النية والإصرار من غانم الذي يلقبه رفاقه "الأخبل".

بقيت جثة بهاء الصغير ملتفة في قماش أبيض في ديوان البيت الكبير بانتظار جده ووالديه وأخيه عمر.

عجز الجميع عن إخبار الحاج قائد وأولاده بالكارثة الجديدة فيما مختار يغالب نفسه كي يستجمع وعيه أو مقدرته على النهوض، كان سالم كعادته قد توارى

هروبا من مواجهة نفسه أو وقع الملامة عليه.

وما أن عاد الوعي كاملا إلى مختار الذي تذكر أنه لم يتناول شيئا منذ اختفاء ولده.

حتى تناهى إلى أسماعه صرخات فتحية ونواحها.

****

قالوا لها إن غانم ابن سالم أخذ ابن عمه بهاء وعلقه في شجرة التين الكبيرة..

فعل ذلك ليحرق قلبَّي عمه مختار وجده قائد اللذين تسببا في ضرب أبيه من قبل طاهر الرضي، غانم الذي كرر والده على مسامعه كل حين:

"أنت لا فلحت في دراستك ولا فلحت أرض جدك ومستحيل تفلح في شيء بحياتك"

لقد فلح في تدمير قلوب الأسرة كلها بضربة واحدة؛ شنق ابن عمه الصغير وأحرق قلب والديه دون ذنب، أحرق قلب سالم وزوجته وجديه، ثم هرب لا أحد يدري إلى أين... وأصحابه يقولون إنه أخبرهم قبلها أنه سيذهب إلى إحدى جبهات الحرب ملتحقا بصفوف الحوثيين ضد العدوان!! هكذا قيل لوالده سالم وجده سلطان الذي يقسم أن يقتله بيديه.

في اليوم الثالث لاختفاء بهاء كانت عائلة الإبي كلها قد اجتمعت لإقامة العزاء في بيت الحاج سلطان ووصل أبناء عمومتهم من كل مكان.

تقاطروا إلى بيت الضحية والقاتل يلعنون ويعزون في نفس الوقت؛ كانت الجريمة صادمة وموجعة كثيرا لكل من سمع بها.

ومختار يحمل جثمان صغيره بهاء بين يديه إلى مقبرة القرية تسبقه دموعه.

رفعها إلى صدره يشم عبق الجسد الحبيب لآخر مرة؛ كان الشذاب والريحان تحيط بكفنه الصغير وتناهى إلى خيال مختار صوت بهاء الصغير وهو يصيح فرحا:

- طلعني إلى السماء يا بابا.

وانهمرت دموع مختار غزيرة وهو يرفع الجسد الصغير عاليا فوق رأسه أمام دهشة من حوله وهو يئن هامسا:

- أنت ذاهب إلى السماء يا بهاء..

****

اجتمعت نساء العائلة يبكين الفقيد الصغير وميتته الموجعة.

واجتمع رجال العائلة وأبناء عمومتهم كي يقرروا بشأن غانم؛ أراد أبناء قائد أخذه قصاصا جزاء فعلته، ودافع عنه أبناء سلطان كونه ضحية لقصوره العقلي، واختلفوا رغم أنه مازال هاربا، لقد وجد الجميع في هذه الكارثة متنفسا لإخراج عداءاتهم وأحقادهم ضد بعضهم.

أصبح الجو المشحون بالكراهية ورائحة الموت سببا لكي تنبش الخلافات القديمة التي تراكمت عليها السنوات، كأنما هذا الضعف الذي اعترى موقف الجميع كان سببا لكي يفكروا في تصفية حساباتهم القديمة.

كان لتوعد ناصر أثره في تأزم الأمر بين أبناء العمومة حين أقسم ألا يؤخذ غانم بذنب لا يدركه بقصوره العقلي وقال محتجا:

- لا حرج على من هو في حالته.

قفز حينها عمر وقد ألهبه الغضب والحزن ووقف أمام ابن جده صارخا:

- لا حرج عليك أنت فأنت لا تقل خبالا عن غانم.

اندفع ناصر بكل الحقد على أبناء عمه قائد ودفع عمر حتى ألقاه أرضا؛ فهو لا ينسى رفضهم تزويجه من غالية وصرخ في وجهه:

- متى تتعلم الصمت ما دام الكبار يتحدثون يا ابن فتحية ؟

تدخل بينهما جميل ابن الحاج قائد وهو يدفع ابن أخيه الذي نهض ينوي العراك وهو يقول:

- ماذا حدث لعقلك يا ناصر هل أصبح التهجم على أولياء الدم هو السبيل لتغطية جريمة غانم ؟!! عمر موجوع على أخيه وهو الذي يرفع عنه حرج الغضب، لكن أنت كيف تبرر لجريمة بهذه البشاعة والقسوة ؟!

نشب الخلاف في عائلة الإبي كما لم يحدث قبلًا، وصار مختار المجني عليه يحاول رتق الخلاف رغم وجعه الدفين.

آلمه كثيرا نغمة التشفي في كلمات ناصر المبطنة بالدفاع عن غانم، وآلمه أن أخاه فاضل يفكر في أخذ الدية من الأراضي الخصبة لأبناء عمه.

آلمه غدر سالم وجرم غانم؛ عاجز عن إنصاف نفسه من نفسه.

حتى توعد عمه سلطان بأن يقتل غانم بيديه، كانت كلمات تقال لتهدئة النفوس فغانم هرب من القرية وهناك من يقول إن جده خلف تأمين أمر هربه.

الجميع نال منه الحزن والصدمة لكن لا أحد فاق الحاج قائد حزنا ووجعا؛ كان يرى في بهاء سلوته وأمله وخلاصة عمره.

لقد انتظره بفارغ الصبر وأعد لميلاده كما لم يفعل منذ ولادة أي من أولاده حتى مختار، كيف طاوع ذلك الأخبل قلبه ليزهق روح الصغير بيديه!!

بمرور الأيام تدهورت صحة الحاج قائد كثيرا، واشتد الحمل على مختار الذي كان يواجه أفعال طاهر الرضي من جهة، ومشاكل أبناء عمومته من جهة أخرى.

****

-15-

كان لشريفة ما تمنت وسعت إليه؛ كسرت غطرسة مختار الإبي وجعلته مهددا في أرضه وحرمت ولده من ابنتها.

فاتن الجميلة كثر خطابها من ذوي الجاه والمال والمراكز الكبيرة، وأبوها يعد بها كل من يحتاجه في مصلحة تخصه.

أصبحت عائلة الإبي في خبر كان، هكذا يراهم طاهر الرضي فقد شغلتهم مشاكلهم الخاصة عن مجابهته فابن سالم بغبائه خدمهم كثيرا حين قتل ابن مختار الصغير.

وتفرقت كلمة عائلة الإبي وصار مختار في مواجهة طاهر منفردا.

قال لشريفة كأنما يقنعها بدهائه:

- إنهم يتنازعون الآن فيما بينهم من يكون كبير العائلة وسيضيع دم بهاء في سبيل ذلك، لا يعلم الحمقى أنهم سيظلون صغارا ما دام كل واحد منهم يرى نفسه أحق من الآخر، هم بحاجة إلى كبير من خارج العائلة وأنا كبيرهم رغما عن أنوفهم.

سيلجأون لي جميعا كي أحكم بينهم وسترين أن الأرض ستؤول لي في نهاية الأمر.

تعلقت ابتسامة شريفة على طرف فمها، حين تسخر من زوجها قائلة له:

- لا تسرف هكذا في خيالاتك فمختار وابنه سيستميتان من أجل هذه الأرض وسيكون لهما من أبناء عائلتهم الكبيرة من يقف معهم بحمية غير عادية، هكذا هم أبناء القبائل هل نسيت ؟ تشتعل في عروقهم الحمية في النهاية، كل ما يحتاجون إليه هو شخص كي يوجهم إلى الطريق الذي يريد.

علينا أن نصنع هذا الموجه، ولأنك لا تصلح لذلك كما يبدو فهذه مهمة عمي الرضي والدكم؛ رجل صالح وولي من أولياء الله، له كلمة مسموعة وصيت طيب.

حدثه كي يستميل قلوب أبناء عمومة مختار، وإذا وصلت القضية إلى يديه احتال عليهم في أمر الأرض لأنها سبب المشاكل كلها كما يبدو.

رفع طاهر الرضي حاجبيه الأجدبين وفتح عينيه على اتساعهما في غضب صارخا:

- ماذا قلت يا شريفة ؟ ها لا أصلح لهذا ؟ متى تقدرين زوجك يا امرأة ها متى؟

ونهض من مكانه يدور في الحجرة هادرا:

- أستميل قلوبهم ها ؟!! بل سأسحق قلوبهم وأجسادهم وسأنتزع ما أريد بالقوة والبطش؛ هؤلاء القبائل من يكونون أصلا ؟ لا تنسي أن الأمور تغيرت وأنا هنا القانون والسلطة.

****

-16-

نهشت الأوجاع قلب مختار؛ لمن يشكو وجعه من ابن عمه سالم ولماذا ترعرع الحقد في أبناء عمومته هكذا ؟!! ومن أين جاءت فكرة الانتقام بكل هذا الكره لمختار وأبيه قائد إلى عقل غانم إن لم يغذها سالم وزوجته زمنا طويلا ؟!!

كان يشعر في أعماقه أن سالم لم يعد قلبه سليما لكنه لم يكن يدري لماذا، أو يتخيل أن يصل بهم الحقد هذا المدى ؟!!!

رغم كل آلامه هذه إلا أن فكرة الشقاق والخلاف الذي نشب بينه وبين أبناء عمه أوجعه أكثر.

والده قائد أصبح عاجزا عن قرار يلم شتات العائلة؛ ضربه الحزن في مقتل. وعمر ابن مختار يشتعل غضبا لا يراعي في غضبه شيئًا؛ ويرى في جده قائد الضعف والعجز عن المطالبة بدم حفيده.

- لو وجدت غانم ابن عمي سأقتله بقرن رصاص، ليس لأنه قتل أخي بهاء فقط بل لأنه حمل السلاح ليقاتل به ضد الجمهورية والبلد بأكمله.

رد مختار بصرامة:

- ابن عمك غانم شخص مريض فاقد الأهلية والإدراك، اجعل هدفك حماية أرضك، لا تقف عند مناكفاتك مع عمك سالم وأولاده، ستذوي قوتك وأنت تقاتل أوهامهم ضدك، سالم ابن عمي وأنا أدرك مشكلته معي منذ صغرنا، يتوهم أن الجميع يسعى

ليتصدر وجاهة العائلة التي والده أحق بها؛ لا يريد أن يكون هناك من هو أفضل منه وهذا أمر جيد لو أدرك الطريق الصحيح لبلوغه؛ ثم لا تنس أنهم أهلك وعشيرتك في النهاية؛ لن نسترجع صك الأرض من طاهر الرضي إلا بالقوة يا "عمر" والقوة هي نحن جميعا؛ أبناء عمك سندك وعونك، وستفعل ما آمرك به كي لا تضر باجتماع كلمة الأسرة كلها، هذا رجائي منك يا ولدي.

صرخ عمر هادرا:

- تريدني أن أكون صورة منك في خضوعك لجدي؛ جدي الذي رسم حياتك وجعلك أشبه بالظل رغم أنك تحمل على كتفيك كل هموم البيت، والآن هو مغيب في عجزه وحزنه، وأنت تكتم وجعك وحزنك كي لا تخسر من طعنك وغدر بك. سأفعل وأقول ما أراه صوابا مهما حدث، وسأنتزع الأرض من طاهر الرضي دون حاجة لأبناء عمي وحقدهم ودسائسهم.

- لا تنكر فضل جدك يا عمر فقد أبقى هذه العائلة الكبيرة متماسكة رغم الضربات المتلاحقة التي تحدث له؛ يكفي ما فعله سالم بغبائه حين سلم صك الأرض لطاهر الرضي؛ فعل كل ما تمليه عليه حكمته وخوفه كرب أسرة، وهو ذات الخوف الذي يجعلني أخشى على ولدي الوحيد ما يفكر به. اندفاعك لن يعيد بهاء لكن استقرار الأسرة وانتزاع صك ملكية الأرض سيكفل لك حياة آمنة ونزوجك وتعوضنا بولدك عن فقد بهاء..

لا تجعل أمر فاتن يؤثر عليك فقد حولها والدها إلى تجارة يشتري بها ولاء الآخرين. شدد عمر قبضته بحنق وهو يقول:

-أنا من يأبى زواج فاتن ويرفضه بكل قوة؛ لم أعد ذلك الشاب الغر الساذج الذي تخدعني المظاهر الجميلة؛ ففي أحسن حالاتها ستكون أفعى مثل أمها.

ما يهمني الآن هو الأرض التي سرق ملكيتها طاهر الرضي وسأنتزعها من عينيه.

-نعم هذا ما أريد سماعه منك، ولن نستطيع وحدنا، ينبغي التصالح مع أبناء عمومتك وجمع كلمة الأسرة والتجاوز عن فعلة غانم الذي قد لا يعود.

****

وكأنما مقتل بهاء كان مفتتح الأحزان لعائلة الحاج قائد.. فعند عودة الأسرة من القرية عقب الدفن ومرور أيام العزاء استيقظت العائلة فجر إحدى الليالي على طرقات لحوحة تضرب حوش البيت الكبير.

نهض مختار مسرعا ليفتح خشية إزعاج والده المريض، وهناك استقبلته سيارة عسكرية مليئة بالجنود المسلحين الذين أحاطوا به من كل جانب قبل أن يقوم أحدهم بربط عينيه ورفعه عنوة إلى وسط السيارة العسكرية.

صرخت فتحية صرخة مدوية باسم مختار وهي تشاهد زوجها يعتقل أمام عينيها، لكنها أسرعت بكل طاقتها نحو حجرة عمر لتمنعه من الخروج لتلتقي به في الصالة وهو يتجه نحو حجرتها بعد أن سمع صرختها، تقطع صوتها وهي تقول:

- العسكر أخذوا أباك، لا تخرج أنت حتى لا يأخذوكما معا ولا نجد من يستفسر حول أمر أخذه.

قبض عمر ذراعيها مهدئا وهو يجلسها أرضا كي تهدأ فتشبثت به بقوة كي لا يخرج وهو يحاول التملص منها، كانت ترتجف وتطلق نشيجا موجعا، فمنذ مقتل بهاء وهي تعاني هذه النوبات العصبية، أتى صوت جده ليجمده في مكانه وهو يصيح بقوة أذهلت عمر: إياك أن تخرج!!

حين خرج الجد قائد كان فاضل وجميل واقفين في الحوش ولم يتبق من السيارة سوى دخانها الكريه وصدى صوتها المزعج.

تطلعا في وجه أبيهما بكل القلق والحيرة، لكنه قال بهدوء وثبات:

- طاهر الرضي يلعب لعبته القذرة كالعادة.

أجابه جميل بقلق:

- سألتهم لماذا وأين يذهبون به فقالوا عليك مراجعة إدارة الأمن، أشعر يا أبي أنهم سيغيبونه مثل المئات من الناس الذين يعتقلون هذه الأيام ويختطفون من بيوتهم دون ذنب أو جريرة، لقد كانوا يبحثون عن عمر أيضا فقلنا لهم إنه ما يزال في القرية.

ظهرت علامات الإرهاق والذبول فجأة على ملامح الحاج قائد كأنما استنفد طاقته كلها خلال هذه الدقائق واستند على ولديه وهو يقول:

- سيجعل الله لنا مخرجا. يجب أن يرحل عمر إلى مكان آمن؛ في المرة القادمة سيقتحمون البيت للبحث عنه.

ترك عمر المدينة تحت إلحاح أعمامه وتوسلات والدته بعد أن أصدر جده أمرا بذلك؛ لم يكن يرغب أن يكون سببا في كارثة أخرى لو عاندهم ورفض الرحيل موقتًا.

بحث عماه عن والده مختار في إدارة الأمن التي نفت وجوده، بحثوا عنه في كل المرافق التي يرجح أنه اقتيد إليها من منزله فجرا، واتضح الأمر أنه معتقل في مكان خارج المدينة.

لجأت عائلة الإبي إلى أشخاص نافذين مقربين من السلطة وكانت الإجابة أن مختار معتقل لدى سلطات صنعاء لكن لا أحد يدري لماذا ؟!

هدّت النكبات المتوالية جسد الحاج قائد وهي تتوالى سراعا كأنما فتحت في وجهه حظيرة وحوش متلاحقة.

تسليم صك الأرض لابن الرضي؛ ومقتل بهاء الصغير، وأخيرا اعتقال ولده وتشريد حفيده عمر.

لم تطل معاناة الحاج قائد فقد توفي كمدا وحزنا بعد أيام من اعتقال مختار.

موته أصاب أخاه سلطان بصدمة أخرجته عن الواقع تماما؛ فقد رافقه أيامه الأخيرة في محاولة لتكفير ذنب صنعه أبناؤه؛ وفي محاولة لمؤانسة وحشته في غياب ابنه وتخفيف حزنه على حفيده.

فانشغل بحزنه ومصيبة وفاة أخيه عن مشاكل العائلة الكبيرة التي كبرت أحقادها أيضا ومشاكلها.

لم يكف أبناء العمومة من توجيه الاتهامات لبعضهم في التفريط بالأرض والوشاية بمختار ومقتل بهاء الذي دمر آمال العائلة أن يجتمعوا أو يتصالحوا.

فقط طاهر الرضي الذي انتعشت آماله وتحققت أحلامه وصار قاب قوسين أو أدنى من البسط على أراضي عائلة الإبي بعد أن خلا له الجو تماما، وصار يقول لشريفة مزهوا بسلطته وقوته:

- أملاك عائلة الرضي بين يديك يا مولاتي فاحكمي كما تشائين.

لم تكن شريفة الفاتنة تعرف أن قبحها يزداد كل يوم في عيون أهالي المدينة؛ فالجميع رغم المجاملات يعلم أطماعها ويدها الخفية فيما يحدث لعائلة الإبي.

أجابته شريفة وهي تطل من نافذة البيت نحو أملاك عائلة الإبي:

- ربما يظل أبناء قائد وسلطان في صراع يا طاهر، لكن لا تنس أن عمر ما زال غائبا وسيعود من أجل أبيه وارضه، سيعود بحماسة وفتوة الشباب.. لا تنس ذلك!!!

نعم سيعود عمر.. وللأقدار جولات والأيام دول.

فكرية شحرة

الشَّجّة

لم يكن يعلم أنه سيبز أبيه في المسيدة بعد انضمامه لتنظيم السلاليين الذي يطالب بعودة حقهم الإلهي في الحكم.

زواجه بشريفة الفاتنة زاده تطلعا للسيادة على من حوله. خطبها والده الرضي من أقاربهم في خولان تحت إلحاحه هو.

حين وصلت عروسا وقبل أن ترتب ثيابها في خزانتها أخرجت صورة كبيرة بإطار خشبي مذهب مسحتها بعناية وعلقتها أعلى سرير نومهما.

قائلة له بدلال : هذا سيدي حسين سيد شهدائنا؛ يجب أن توضع صورته في كل بيت؛ وأن تكون كلماته نور طريقنا في الحياة ونحن نبدأها معا يا طاهر.